٣١

أنا الآجئ الذي حلُم

رحلة الألم لاجئ

د محمد صالح العلي

الفهرس

- **صفحة الإهداء**
- **الفصل الأول:** الرحيل نحو المجهول
- **الفصل الثاني:** البحث عن معنى اللجوء
- **الفصل الثالث:** من سأكون؟
- **الفصل الرابع:** استعادة الذات
- **الفصل الخامس:** الصحوة
- **الفصل السادس:** لحظة الضوء الأولى
- **الفصل السابع:** بناء الجسور والصداقات
- **الفصل الثامن:** تحدي الجائحة (كورونا)
- **الفصل التاسع:** أول ثمار النجاح
- **الفصل العاشر:** تحرير الوطن
- **الفصل الحادي عشر:** أحلامي وتخطيطاتي بعد التخرج
- **الفصل الثاني عشر:** شعور السعادة والفخر بالانتماء
- **الفصل الثالث عشر:** الشوق إلى الأردن ومخيمي الذي أعددته وطني
- **الفصل الرابع عشر:** أحلامي في مساعدة اللاجئين
- **الفصل الخامس عشر:** تحقيق معظم أهدافي (رسالة إلى اللاجئين والعالم)

إهداء

إلى أرواح الأطفال التي هُجّرت قسراً ...إلى كل لاجئ حمل اسمه كهوية، وخيمته كوطن مؤقت ...إلى كل يدٍ مدت العون في أحلك الظروف ...إلى أمي، التي جعلت من الغربة حضنًا دافئًا، ومن الكرفان بيتًا عامرًا بالأمل ...الى تلك العينيان اللتان يحملان البُن فيهما إلى كل من آمن بالأحلام، وعلم أن الإرادة تصنع المستحيل...

الفصل الأول

الرحيل نحو المجهول

كان كل شيء يبدو طبيعيًا... مجرد يوم آخر من طفولتي، حيث كنت أركض بلا قيود في البرية الواسعة أمام منزلنا الصغير. ثلاث غرف فقط، تتسع لأحلامي الصغيرة وضحكاتنا الكبيرة، تكفي لتحتويني، تكفي لتكون عالمي بأسره. كانت جدرانها المتهالكة تحمل نقوشًا من الأيام الخوالي، كل خدش فيها كان قصة ترويها لنا الجدة، وكل زاوية تحمل **رائحة خبز أمي الدافئة في الصباح الباكر**، ممزوجة بعبق تراب قريتنا العتيق. كان ضوء الشمس يتسلل من نافذة المطبخ الوحيدة، يرسم خطوطًا ذهبية على الأرض الترابية التي كنا نلعب عليها، وتتناثر في زوايا الغرف قصص جدتي التي كانت ترويها لنا قبل النوم، عن الغيلان والأبطال، عن بساطة الحياة وقوة الروح التي تسكن في أجدادنا. لم يكن عالمنا يتجاوز تلك التلال الخضراء التي كانت تحيط ببيوتنا، وكنت أظن أن الكون يبدأ وينتهي حيث تبدأ مساحات لعبنا اللامحدودة.

أتذكر جيدًا روتين الصباح، الذي كان يبدأ قبل شروق الشمس. صوت صياح الديك من بعيد، ثم صوت خطوات أمي الهادئة في المطبخ، وهي توقد النار في الفرن الطيني. كنا نستيقظ على رائحة الخبز الطازج، التي كانت تملأ الأرجاء، ممزوجة برائحة الحليب الدافئ الذي كانت تحلبه جدتي من الأغنام. كان هذا الروتين البسيط يمنحني شعورًا عميقًا بالأمان، وكأن الزمن قد توقف عند هذه اللحظات الأبدية. بعدها، كنت أهرع إلى حوش البيت، حيث كانت الأغنام تتجمع، أركض بينها وأضحك، يلامس وبرها الناعم يديّ الصغيرتين، وتملأ أصواتها الرتيبة أذنيّ، صوت أجراسها الصغيرة كمعزوفة يومية تمنحنا السلام. كنت أحيانًا أتسابق مع الحملان الصغيرة، أقع وأنهض، وتتناثر ضحكاتي في الهواء الطلق، دون أي قلق أو همّ. كان أكبر همومي هو متى سأعود إلى المنزل لأشاهد برامجي المفضلة على التلفاز القديم الذي كان يبدو كصندوق سحري يفتح على عوالم أخرى، وأتناول الطعام الذي تعدّه أمي بحب، ذلك الطعام الذي

كانت تضع فيه من روحها أكثر مما تضع من مكونات. كانت **رائحة المقلوبة أو الكبة النية** تنتشر في الأرجاء معلنة قرب ساعة العودة إلى دفء البيت وحنان أمي، حيث الأمن كان يلفنا كبطانية سميكة، وحيث كانت عائلتنا الصغيرة هي قلعتنا الحصينة.

قريتنا لم تكن كبيرة، ربما بضع عشرات من البيوت المتناثرة بين التلال الخضراء التي كانت ترتفع كالحراس حولها. كانت كقطعة فنية طبيعية، كل زاوية فيها تحكي قصة، وكل شجرة زيتون عجوز تحمل في أغصانها حكمة السنين. لكنها كانت كل شيء بالنسبة لي. كنا نعرف بعضنا بعضًا، لا أحد يحتاج إلى أن يعرّف عن نفسه، فالجميع يعرف الجميع. ابتسامة بسيطة كانت كافية لتفتح أبواب القلوب، وكلمة "يا جاري" كانت تعني أكثر من أي عقد أو ورقة رسمية. كانت العلاقة بيننا كنسيج واحد، كل خيط فيه يربطنا ببعضنا البعض بوشائج من المحبة والاحترام. لم نكن بحاجة إلى

تعقيدات المدينة، لم نعرف صخبها المزعج ولا غلاءها المرهق، كان كل شيء بسيطًا، كل شيء واضحًا كعين ماء رقراق تشرب منها الأغنام والعطشى. لم نكن نملك الكثير من الماديات؛ لم تكن خزائننا ممتلئة بالذهب ولا جيوبنا ثقيلة بالنقود، لكننا لم نكن نشعر بالنقص على الإطلاق، فقد كنا نملك **الأمان** الذي لا يُشترى، والراحة النفسية التي تفوق كل كنوز الأرض، والانتماء العميق لجذور ضاربة في الأرض الطيبة، كنا نملك الجيران الذين لا تغلق أبوابهم في وجه المحتاج، والأقارب الذين لا تنقطع زياراتهم في المناسبات وفي الأيام العادية. كانت حياتنا نسيجًا واحدًا، كل خيط فيه يربطنا ببعضنا البعض، وبأرضنا، وبأجدادنا الذين عاشوا وماتوا هنا، وتركوا لنا إرثًا من العادات والقيم لا يُثمّن، كان يُشعرنا بالثراء الحقيقي.

أتذكر أنني قبل ذلك اليوم بأيام قليلة، تحديدًا في الأسبوع الأخير من العطلة الصيفية القصيرة، ذهبت مع والدي لشراء مستلزمات المدرسة. كان قلبي يرقص من السعادة، فقد انتهى الفصل الأول بنجاح باهر، وتفوقت في بعض المواد، وكنت متحمسًا للفصل الدراسي الجديد الذي يحمل وعدًا بالتعلم والمغامرات الجديدة. كان السوق الصغير في قريتنا يعج بالحياة، أصوات الباعة تتداخل مع ضحكات الأطفال، ورائحة الفاكهة الطازجة تمزج بعبير البهارات. أخذت صورتي السنوية في المدرسة، وقفت أمام الكاميرا رافعًا رأسي بفخر، مرتدياً الزي المدرسي الأزرق الجديد الذي اشترته لي أمي بعناية، وكأنني أكبر وأخطو نحو المستقبل بخطوات واثقة لا تعرف التراجع. اشتريت **دفاتر جديدة بيضاء نقية كصفحات أحلامي،** أقلامًا ملوّنة كانت تلمع تحت ضوء الشمس، تمامًا كابتسامتي التي لم تفارق وجهي، واعدة بيوم جديد مليء بالرسم والكتابة، وكأن كل قلم يحمل في طياته ألف حلم لم يُكتب بعد. ظننت أن الدنيا قد ابتسمت لي، وأنها فتحت

لي ذراعيها لأعيش في أمان بين أحلامي وألعابي التي لم تكن تنتهي، وأن غدًا سيشبه اليوم، ويومًا سيشبه الأمس، وأن حياتي ستستمر في هذا المسار السعيد إلى الأبد. كنت أخطط للعب مع أصدقائي بعد المدرسة، ولإكمال رسوماتي على الجدران الخارجية لمنزلنا، كل تفكيري كان محصوراً في هذا العالم الصغير الجميل.

لكن تلك الليلة، شيء ما كان مختلفًا. لم أفهمه حينها، لكنني شعرت به كاهتزاز خفيف في جوف الأرض قبل الزلزال الكبير، كصوت غريب للريح التي كانت تعزف لحنًا شجيًا غير مألوف على حواف نوافذنا الخشبية. كان هناك **توتر غريب يملأ الجو**، كغيوم سوداء تتجمع في الأفق الصافي، تخنق أنفاس الليل الباردة. وجوه الكبار بدت أكثر جدية، خطوط القلق حفرت على جباههم كأنها خريطة لطرق مسدودة، والهمس بينهم لم يكن اعتياديًا، بل كان همسًا ثقيلًا، محملاً بالخوف المجهول، يقطع الصمت

المعتاد في قريتنا. كانوا يتبادلون النظرات المختلسة، وعيونهم تقول ما لا تقوله ألسنتهم، كأنهم يخفون سرًا ثقيلاً يخشون الإفصاح عنه. والدي كان يجلس صامتًا في الزاوية، يحدق في الفراغ، بينما أمي كانت تحرك يديها بقلق وهي تعد الشاي، ويديها ترتعشان قليلًا. لم أسأل، ربما لأنني لم أرد أن أفسد سعادتي التي كانت تتسلل مني ببطء، كحبة رمل تقع من كيس مثقوب، أو ربما لأنني كنت طفلًا واثقًا أن الغد سيحمل لي يومًا آخر من اللعب والدراسة والضحك، وأن كل هذا سيمر كأي عارض طارئ، وينقشع كضباب الصباح. كنت أخبئ رأسي في وسادتي، أحاول أن أُبعد هذه المشاعر الثقيلة عني، وأتمنى أن يأتي الصباح سريعًا ليمحو كل هذه الغيوم.

استيقظت في الصباح، لكنني لم أجد نفسي في سريري الدافئ. لم أشم رائحة خبز أمي أو صوت جدتي وهي تعد الشاي، بل رائحة غريبة من

البنزين والعرق والخوف. كنت في سيارة قديمة، تهتز بنا على طرقات وعرة وغير مألوفة، وأصوات عجلات السيارة على الحصى كانت هي موسيقى الصباح بدلاً من زقزقة العصافير أو صوت الأغنام. لا أعرف وجهتها، ولا أعرف لماذا نحن فيها، ولا لماذا سريري لم يعد مكاني. حولي كان هناك الكثير من الناس، وجوه مألوفة من قريتنا، بعضهم يمسك بطفله بقوة كأنه يخشى أن يضيع منه، وبعضهم الآخر ينظر بعينين شاردتين، شاحبتين، وشفاه مطبقة كأنها لم تتذوق طعم الحديث منذ زمن. لم يكن هناك ضحك يعلو أو حديث عن مواسم الحصاد أو الأغنام التي تركناها خلفنا، أو حتى عن المدرسة وواجباتها. كان هناك **صمت ثقيل يلف الجميع**، صمتٌ يصرخ بالأسئلة، وصوت محركات السيارة يشق عروقه، ونظرات قلقة تبحث عن إجابة لا يملكها أحد، حتى الكبار الذين طالما ظننت أنهم يعرفون كل شيء. كان الهواء ثقيلاً، مشبعًا برائحة اليأس والخوف الممزوج بتراب

الطريق اللانهائي. كلما حاولت أن أقول شيئًا، شعرت بأن حلقي جاف، وأن الكلمات تتجمد على شفتي.

بعد ساعات طوال بدت وكأنها دهر، وصلنا مع شروق الشمس، مع أول خيوط النور التي كشفت عن مشهد لم تستطع عيناي استيعابه... لم يكن منزلنا هناك. لم يكن شيء مما أعرفه هناك. لا أشجار الزيتون التي كانت تظلل حوشنا، لا صخور جدي التي كان يجلس عليها ويحكي لنا قصصًا، لا رائحة قريتنا المميزة، بل رائحة غريبة من المعدن البارد والتراب الجديد الجاف. بدلًا من ذلك، كانت هناك صفوف لا نهائية من **الكرفانات البيضاء، مصفوفة بجانب بعضها البعض** وكأنها نسخة مكررة من بعضها، بلا روح، بلا ذاكرة، بلا دفء. كانت مجرد هياكل معدنية باردة، كأنها علب كبريت كبيرة مبعثرة في صحراء جرداء. لم أكن أعرف هذا المكان، ولم أكن أعرف من سأكون فيه. هل سيُنسى اسمي القديم الذي أحبه؟ هل

سأصبح مجرد رقم في هذا البحر الأبيض من الوجوه التائهة والقصص المجهولة؟ شعرت وكأنني خرجت من لوحة فنية زاهية الألوان إلى رسم أبيض وأسود خالٍ من الحياة.

نزلت من السيارة، وخطواتي كانت ثقيلة كأنها تجر قيودًا غير مرئية. أحدق في كل شيء حولي... الكرفانات الغريبة التي كانت تطل علينا بعيون زجاجية فارغة، الناس الغرباء الذين يتبادلون النظرات الحائرة، أو يجلسون صامتين كأنهم تماثيل من الحزن، الأرض الجافة القاحلة التي لم ترتوِ منذ زمن، والشقوق تملأها كقلوب أهلها، السماء التي بدت وكأنها مختلفة عمّا كنت أراها في قريتنا، كأنها سماء أخرى لا تحمل ذات الوعود ولا ذات النجوم اللامعة التي كانت ترشدنا في الليالي المظلمة. التفتُ إلى إخوتي الصغار، فرأيت نظراتهم التائهة، كانوا مثلي... حائرين، غير مرتاحين، لا يفهمون ما الذي يحدث، لكنهم كانوا يتشبثون بي وبوالديّ

وكأننا آخر ملاذ لهم في هذا العالم الجديد الذي ابتلع عالمنا القديم وألقى بنا في هذا الفراغ. كانت أيديهم الصغيرة تمسك بيدي، باردة ومرتعشة، وكأنها تبحث عن إجابة في صمتي، أو عن دفء افتقدوه.

رأيت أمي تنزل الحقائب، تضع الأغراض القليلة التي حملناها معنا في الكرفان الصغير، كل قطعة وكأنها تحمل معها جزءًا من ذكرياتنا المبعثرة. كانت حركاتها بطيئة وثقيلة، وكأنها تحمل ثقل العالم على كتفيها، وكل قطعة قماش كانت تضعها في الكرفان كانت تحمل معها جزءًا من روحها المنهكة. كنت أريد أن أسألها: "أمي، متى نعود إلى بيتنا الذي تركناه مفتوحًا؟ متى نعود إلى أغنام جدي وضحكات جيراننا؟"، لكنني لم أسأل، ربما لأنني كنت أعرف الإجابة في أعماقي دون أن تنطقها، ربما لأن الصمت كان أبلغ من أي جواب. أو ربما لأنني رأيت **ابتسامتها التي كانت تحاول أن تبدو مطمئنة**، لكنها كانت ابتسامة مهزوزة، تحمل ألف شعور

مختلط، ألف قصة من الخوف والأمل والتعب الذي لا ينتهي، ألف دمعه لم تسقط بعد. لم أفهم حينها الكلمات الكبيرة مثل "حرب" أو "نزوح"، لكنني شعرت بشيء غريب... شيء يشبه الضياع، لكنه لم يكن ضياعًا كاملًا، كان أشبه بمحاولة الإمساك بشيء يتلاشى بين يديك دون أن تستطيع منعه، كفقاعة صابون جميلة تنفجر في الهواء، أو كحلم جميل يتبخر مع أول شعاع شمس، ويبقى منه فقط شعور بالضياع.

جلست عند باب الكرفان الحديدي البارد، الذي كان يرتجف مع كل هبة ريح، أحدق في المكان الجديد الذي أصبح قدري، في هذا المربع الضيق الذي سيضم حياتنا وحكاياتنا الجديدة. هذا منزلي الآن؟ غرفة واحدة فقط لكل أفراد الأسرة، لا مساحة للعب أو الركض، ولا زوايا للاختباء من إخوتي الصغار، ولا حتى مكان لدفاتر المدرسة الجديدة التي أحببتها. لا جدران تحمل ذكرياتي الطفولية، لا صور معلقة لأحبائنا الذين تركتهم

خلفي، لا نافذة أطل منها على عالمي القديم الذي اختفى، لا رائحة خبز أمي في الصباح كما اعتدت، بل رائحة الحديد والتراب واليأس، ممزوجة برائحة المجهول الذي ينتظرنا. شعرت ببرد قارس يتسلل إلى عظامي، ليس من الجو، بل من فقدان الدفء الذي كنت أعتاده.

في لحظة واحدة، شعرت أن كل شيء قد تغير... السعادة التي كانت تغمرني قبل أيام قليلة اختفت، وكأنها لم تكن أبدًا، وكأنها مجرد حلم جميل استيقظت منه فجأة على كابوس لم أكن أتخيله. أصبح الفرح مجرد شيء يتكرر على وجهي عندما يبتسم لي أحد الكبار أو أرى لعبة بسيطة، لكنه لم يكن حقيقيًا، كان قناعًا هشًا يرتديه جسد صغير يفتقد روحه ويحاول التكيف مع واقع قاسٍ. لم أعد أعرف شيئًا...

لم أعد أعرف نفسي. كيف يمكن لطفل أن يتغير عالمه في ليلة وضحاها؟ كيف يمكن لكل شيء أن يختفي بهذه السرعة؟

من أنا في هذا المكان الغريب؟ أين أنا في هذا الفراغ الواسع الذي حل محل عالمي القديم؟ من سأكون هنا بين هذه الكرفانات المتشابهة، في هذا المكان الذي يطلقون عليه اسم "مخيم الأزرق للاجئين السوريين"؟ لماذا هذا الاسم الطويل والمعقد؟

لم أكن أملك أي إجابة... فقط صدى أسئلة تائهة تركتها السماء الصامتة تستقبلها، وتركني أنا أواجه مجهولاً لم أكن مستعدًا له، مجهولاً يتمدد أمامي كصحراء لا نهاية لها، وأنا أقف وحيداً في

وسطها

الفصل الثاني

البحث عن معنى اللجوء

لم أعلم كيف مضى الوقت، ولم أشعر كيف انقضى أول أسبوع في هذا المكان الجديد، هذا الفراغ الأبيض الذي ابتلع عالمي. الأيام كانت تتكرر دون أن ألاحظها، وكأن الزمن توقف أو أصبح بلا معنى. كنت أستيقظ كل صباح على صوت الأقدام المتسارعة خارج الكرفان، وعلى همهمات الجيران التي كانت تتسلل عبر الجدران الرقيقة كأسرار لا أستطيع فهمها. كل يوم كان نسخة طبق الأصل من سابقه، شمس حارقة في النهار، وليل بارد يلفنا بصمته المخيف. لم أعد أجد لذة في اللعب، ألعاب الكرة كانت تتلاشى، ورغبتي في الركض في البرية قد ماتت تحت وطأة الأنقاض والأسلاك الشائكة التي تحيط بالمخيم. كنت أجلس لساعات طويلة عند باب الكرفان، أراقب الناس الذاهبين والآيبين، وجوههم تحمل ذات التعب الذي أراه في عينيّ أمي، وأتساءل: إلى أين يذهبون؟ وماذا يفعلون؟

بعد مرور أيام، شعرت فيها أمي وأبي بالقلق على صمتي الذي طال، قرر والداي أن يسجلانا في المدرسة، وكأنهما يحاولان إعادة شيء من الحياة

الطبيعية إلينا، أن يلقيا بقشة نجاة في بحر ضياعنا. "المدرسة هي طريقك للمستقبل يا بني"، قال والدي بصوته المتعب وهو يربت على كتفي. "هناك ستجد أصدقاء وتتعلم أشياء جديدة." كانت كلماته محاولة يائسة لرسم الأمل على وجهي الذي اكتست به غيوم الحزن.

ذهبنا إلى المدرسة، كانت عبارة عن مجموعة من الكرفانات الكبيرة، لا تشبه جدران مدرستي القديمة الطينية الدافئة. وقفنا في طابور طويل تحت أشعة الشمس الحارقة، صفوفًا من الأطفال يحملون في عيونهم ذات التساؤلات. سلمنا الأوراق التي بالكاد كانت تحوي معلومات عن أسمائنا وتواريخ ميلادنا، أوراقًا لم تكن تحمل أي ذكر لماضينا، لأين كنا، أو ماذا فقدنا. ثم وجدت نفسي في الصف الأول من المرحلة الابتدائية. لم يكن الأمر جديدًا عليّ، فقد كنت تلميذًا مجتهدًا في قريتي، أحب القراءة والكتابة، وأحب ألوان الدفاتر الجديدة. لكن المدرسة هنا لم تكن كالسابق. لم أشعر

بأي شغف يملأني، لم أجد ذلك الحماس الذي كان يملأني عندما كنت أذهب إلى مدرستي القديمة، حيث كانت أصوات ضحكاتنا تملأ الفصول وتختلط بضجيج الأوراق وأصوات المعلمين. هنا، كان شعورًا ميتًا، وكأنني أؤدي شيئًا بلا روح، بلا هدف. كانت جدران الكرفان الصفية باردة ومعدنية، والضوء يدخل من نوافذ صغيرة، والسبورة الخضراء لا تملك ذات سحر سبورة مدرستي القديمة. لم أعد أرغب في الدراسة، لم يكن لي أي حلم، لم يكن هناك شيء يدفعني للاستمرار سوى أنني كنت مجبرًا على الذهاب، أنني أذهب لأمضي الوقت، لأهرب من فراغ الكرفان، لا لأتعلم.

مضت الأيام وأنا أشعر بأنني مجرد شخص يجلس في مقعده دون هدف، كظل باهت لشخص كان يوماً ما حيوياً. كنت أؤدي واجباتي بصمت، أكتب الحروف والكلمات دون اهتمام، بلا رغبة حقيقية في التعلم. لم يكن للمدرسة أي معنى بالنسبة لي، كنت أذهب فقط لأن والديّ أرادا ذلك،

ولأنها كانت الروتين الوحيد المتبقي الذي يشبه الحياة. كنت أراقب زملائي الجدد، بعضهم كان يضحك، وبعضهم كان يلعب، لكنني كنت أشعر بأنني مختلف، كأن بيننا حاجزاً زجاجياً يمنعني من الاندماج في عالمهم، لأن عالمي كان قد تحطم.

وذات يوم، دخل أستاذ اللغة العربية إلى الصف. كان رجلاً كبيرًا في السن، شعره أبيض كالثلج، وعيناه تحملان نظرة حزينة لكنها حكيمة. بدأ يوزع النصوص على الطلاب ويطلب منهم قراءتها بصوت عالٍ. كان الطلاب يقرأون بتلعثم وببطء، وكنت أراقبهم دون اهتمام. وعندما وصل إليّ، أعطاني نصًا عن شجاعة الأطفال في مواجهة الصعاب. تناولت الورقة وبدأت أقرأ. لم أكن أعلم أن قدرتي على القراءة بطلاقة ووضوح ستلفت انتباهه، فقد تعلمت القراءة في مدرستي السابقة قبل أن نغادر، وكنت أحب

الكتب كثيرًا. عندما أنهيت النص، نظر إليّ الأستاذ بدهشة لا تخلو من الإعجاب، وتناثرت الهمسات في الصف. قال بصوت مرتفع:

" ـــ كيف تعلمت القراءة بهذه السرعة وهذا الإتقان؟ أنت أفضل من معظم من هم أكبر منك سناً"!

لم أجب، فقط وقفت صامتًا، أشعر بأن الأمر لم يكن يستحق الاهتمام أو الإشادة. كان الثناء يبدو غريباً في أذني، وكأنني لا أستحقه في هذا المكان. لكنه لم يتركني وشأني، بل أوقفني أمام الصف كله، وضعني في المقعد الأول بجواره، وكأنه يريد أن يجعل مني مثالًا يُحتذى به، أن أكون شعلة تضيء دروب زملائي. لكنه لم يعلم أن ذلك لم يكن يعني لي شيئًا، لم يكن يعني لي النجاح أو التميز في هذا الفراغ، لأنني ببساطة لم أكن أشعر أنني أنتمي لهذا المكان، أو أنني أستحق أي نجاح فيه. كنت أريد فقط أن أعود إلى مقعدي الخلفي، إلى عالمي الخاص من الصمت والتأمل.

مرت الأيام، وكنت أشعر بأنني مجرد جسد يتحرك في الفراغ، كدمية خشبية تُحرّكها خيوط خفية. لم أستطع التكيف، لم أستطع تقبل الواقع الجديد بكل ما فيه من تحديات. كان النجاح في المدرسة يبدو بلا معنى، فما الفائدة من التعلم إذا لم يكن هناك مستقبل؟ كانت الأسئلة تنهش روحي. وذات يوم، بينما كنت أرى الأطفال يلعبون خارج المدرسة بحرية، قررت أن أترك المدرسة.

نعم، تركتها. لم أعد أريد أن أتعلم دروسًا بلا هدف، لم أعد أريد أن أكون طالبًا في مكان لا أشعر فيه بالانتماء، لم أعد أريد أن أبحث عن مستقبل لم أعد أراه واضحًا أمامي، فقد اختلطت كل ملامحه. قررت أن أتجه إلى الترفيه، ربما أجد هناك ما يعيد إليّ بعضًا من شغفي الضائع، بعضًا من البراءة التي فقدتها في ليلة واحدة. كانت المراكز الترفيهية داخل المخيم

هي الملجأ، حيث لا دروس ولا واجبات، فقط وقت يمضي بلا مسؤوليات، بلا تفكير في الغد المجهول.

وهكذا بدأت رحلتي الجديدة، بعيدًا عن الكتب التي لم تعد تلهمني، بعيدًا عن الفصول الدراسية التي خنقت روحي. وجدت نفسي في حاضنات الألعاب والترفيه، أُضيّع الوقت في ألعاب الفيديو وأركض هنا وهناك دون غاية، حيث لا دروس ولا واجبات، فقط وقت يمضي بلا مسؤوليات. مضى عامان على تركي للمدرسة، عامان كنت أهرب فيهما من الواقع، أبحث عن لحظة أنسى فيها كل شيء، لكن شيئًا ما كان يطاردني، كظل لا يفارقني. كان هذا الشيء هو صوت كلمة تتكرر على مسامعي باستمرار، في أحاديث الكبار وهم يتجمعون، في نشرات الأخبار التي كانت تُعرض على شاشات التلفاز الصغيرة في الممرات، في حديث المعلمين في المراكز

التي كنت أزورها أحيانًا. كنت أسمعها، لكنني لم أكن أفهمها تمامًا:

"اللجوء."

كنت أسمع كلمة "اللجوء" كثيرًا، في أحاديث الكبار، في نشرات الأخبار التي لم أكن أفهم منها سوى هذه الكلمة التي تتكرر كصدى. كنت أسمعها، لكنني لم أكن أفهمها تمامًا.

ماذا يعني اللجوء؟ هل هو مرض؟ هل هو عقاب؟

من نحن؟ كيف أصبحنا هنا؟ ما هو هذا المكان الذي يسمونه "مخيم الأزرق للاجئين السوريين"؟ لماذا يحمل هذا الاسم الطويل والمعقد؟ لماذا لم يكن اسمًا مثل قريتي، اسمًا بسيطًا مألوفًا يبعث على الطمأنينة كـ "قرية الرمان" أو "وادي الزيتون"؟ كنت أطرح هذه الأسئلة في عقلي الصغير الذي لم يعد يحتمل المزيد من الغموض، لكن لم أجد لها إجابة واضحة من أحد، ولا حتى من والديّ اللذين كانا يتجنبان الخوض في هذه التفاصيل المؤلمة.

وذات يوم، بينما كنت ألهو بكرة القدم في ساحة الحاضنة التي كنت أتردد عليها بانتظام، جاء ضيوف جدد. لم أكن مهتمًا بهم في البداية، فقد كانوا مجرد زوار آخرين، غرباء يرتدون ملابس أنيقة ويحملون كاميرات ضخمة، يأتون ليلتقطوا الصور ثم يغادرون. لكنهم هذه المرة لم يكتفوا بالتقاط الصور، بل بدأوا بإعطائنا جلسة توعوية، فجلست مثل باقي الأطفال على الأرض الصلبة، أستمع ببعض الملل ممزوجاً بالفضول.

تحدث أحدهم، رجل ذو لحية بيضاء وعينين حنونتين، عن أهمية التعليم والمستقبل. ثم سألنا:

" ـــما هو حلمكم؟ ماذا تريدون أن تصبحوا في المستقبل؟"

نظرت حولي إلى الوجوه الصغيرة، بعضهم قال "مهندس"، وآخر قال "طبيب"، وفتاة قالت "معلمة". لكنني لم أجد إجابة تخرج مني. نظرت إليه ببرود وقلت بكل بساطة، وكأنني أُقر حقيقة لا مفر منها:

" ـــلا أدري".

لم أكن أعلم كيف يكون لي مستقبل، لم أكن أعلم حتى من أنا لأحلم بشيء. كنت مجرد شخص يعيش يومه وينتظر أن ينتهي، دون أن يفكر في الغد، أو في أي غاية من وجوده. كنت أشعر بأنني صفحة بيضاء، لكنها صفحة ممزقة لا يمكن الكتابة عليها.

لكن الشخص الذي كان يتحدث لم يتوقف عند إجابتي. جاء وجلس بجانبي، وضع يده الكبيرة على كتفي، وتحدث بصوت خافت لكنه كان يصدح في أذني كأنه صوت قادم من بعيد: "يا بني، لا تيأس. الحياة لا تتوقف هنا. عليك أن تقوي نفسك، أن تتعلم لتتمكن من بناء بلدنا من جديد".

توقفت عند كلماته .**بلدنا؟**

أي بلد؟ أين هو؟ لماذا نحن هنا إذن؟ لماذا لم نعد هناك؟ لماذا تركونا نرحل؟ رفعت يدي التي كانت ترتجف قليلًا، وسألته بصوت خافت، يكاد لا يُسمع:

" ـــأين بلدنا؟ لماذا جئنا إلى هنا؟ ماذا حدث لنا؟"

نظر إليّ بحزن عميق، ثم قال لي الحقيقة التي لم أكن أريد سماعها، الحقيقة التي كانت ثقيلة كصخرة ألقت على قلبي:

" ـــبلدك لم يعد كما كان... بلدك الآن تحت الصيانة. عندما يصبح آمنًا، ستعود إليه".

بلدي تحت الصيانة؟ لم أفهم تمامًا معنى هذه الكلمات الغريبة. هل هو مثل سيارة معطلة؟ هل سيعود كما كان؟ لكنني شعرت أنني فقدت شيئًا لا يمكن

استرجاعه بسهولة، شيء أكبر مني، أكبر من الكرفانات، أكبر من أحلامي الضائعة. شعرت وكأنني فقدت جزءاً من روحي.

ثم أكمل حديثه، وكأنه يضع نقطة النهاية على مصيري، أو يطلق حكمًا لم أكن أستعد له:

" ـــأما الآن، فأنت لاجئ".

لاجئ؟

توقفت عند هذه الكلمة. شعرت وكأنها شيء ثقيل وبارد يلفني ويقيدني من جميع الجهات. لم أكن أفهم معناها تمامًا بالكامل، لكنني شعرت بأنها كلمة مختلفة، كلمة غريبة، كلمة جعلتني أشعر أنني محاصر في قفص غير مرئي. لم أعد أنا، لم أعد الطفل الذي يركض في البرية، بل أصبحت شيئًا آخر، تعريفًا جديدًا لي لم أختره.

لاجئ...

الكلمة التي كبلت يداي، وسلبت مني طعم الحرية الذي كنت أتنفسه كل صباح. الكلمة التي قيدت أحلامي، حتى باتت مجرد أفكار عالقة في عقلي، لا تستطيع أن تتحول إلى حقيقة، لا يمكنها أن ترى النور. كانت كشبكة صيد ضخمة ألقت عليّ، سلبت مني القدرة على الحركة، وعلى الطيران.

لا أدري... لا أدري ما معنى أن أكون لاجئًا، لكنني أدركت أن هذه الكلمة غيرت كل شيء في حياتي، وأنها ستغيرني أنا أيضاً. شعرت حينها أن جزءًا مني قد مات، وأنني ولدت من جديد في عالم لا يشبه شيئًا مما عرفته، عالم تحدده كلمة واحدة: لاجئ.

الفصل الثالث

من سأكون ؟

باتت كلمة "لجوء" تلاحقني من مكانٍ إلى آخر، من واقعي الذي أعيشه كل يوم إلى أحلامي التي تحولت إلى كوابيس ليلية. لم تعد مجرد كلمة تُقال، بل أصبحت **ختمًا على جبيني، قيدًا على روحي، سجنًا غير مرئي أحمل مفتاحه في يدي لكنني لا أعرف كيف أفتح بابه** .قيدت كل أحلامي الصغيرة، وكل ما كنت أطمح إليه من مستقبل مشرق. أصبحت كلماتي للتعبير عن ذاتي محدودة بمكاني، بحدود هذا المخيم الذي صار عالمي. وكأن هذه الكلمة تتشعب منها معانٍ كثيرة في أفكاري، كأنها بحرٌ عميقٌ مظلم، في وسطه شخصٌ يحاول إيجاد اليابسة، يمد يديه اليائستين في كل اتجاه، لكنه لا يراها ولا يدري متى سيغرق، ومتى ستسحبه الأمواج إلى الأعماق الأبدية.

أصبحت كشخصٍ لا يحب التعريف عن نفسه، لا عن ماهيته، ولا عن هويته. كنت أخشى أن يسألني أحدهم عن اسمي، أو عن أين كنت أعيش،

لأنني لم أكن أملك إجابة تُرضيني، أو تُرضي من يسأل. لم أعد أجد معنى الأحلام التي كانت تملأ رأسي، ولا معنى للمستقبل الذي كان يوماً ما هدفاً واضحاً أمامي. كنت شخصًا يعيش يومه بيومه، لا يفكر بالغد، لأن الغد كان يحمل في طياته المزيد من المجهول، والمزيد من الأسئلة بلا إجابات. كنت طفلًا كان أكبر همومه أن يأتي الصباح ليذهب إلى روتينه اليومي البسيط، واللعب مع الأغنام والبرية الواسعة. لم أكن أعلم أن هذا الطفل سيتبخر بهذه السرعة، وأن عالمه سينهار في طرفة عين. لا أدري كيف تغيرت كل الأمور بهذه السرعة الجنونية. لم أعلم أنني لن أكون ما أريد، أنني لن أستطيع اختيار طريقي، بل سيُفرض عليّ طريق لم أرغب به.

كنت أستيقظ كل صباح على صوت الريح وهي تعانق خيامنا المعدنية الرقيقة، صوتها يشبه أنينًا لا ينتهي، وعلى همسات أمي وهي تعد لنا الإفطار البسيط، رغيف خبز وشاي خفيف، محاولة منها لزرع بعض

الدفء في هذا البرد القارس. كنا نعيش في مخيمٍ للاجئين، حيث كانت الأيام تتشابه كقطرات الماء، وحيث الأمل يتسلل بصعوبة من بين الفتحات الضيقة للخيام والكرفانات، وحيث الأحلام تُؤجل إلى أجلٍ غير مسمى، كأنها ودائع في بنك لا نعرف متى يحين موعد سحبها. كانت الليالي أطول، وظلال الخوف أكبر، وصوت القصف البعيد الذي كنا نسمعه أحيانًا، كان يذكرنا دائمًا بسبب وجودنا هنا، ويقطع أي خيط من الأمل كان يحاول أن يتسلل إلى قلوبنا.

في المدرسة، كنت أحاول أن أجد نفسي بين الكتب والدفاتر، بين وجوه الأطفال الآخرين الذين كانوا يبدون أقل مني حيرة. لكن كلمة "لاجئ" كانت تلاحقني حتى هناك، كانت تُسقط ظلًا ثقيلًا على كل ما أفعله. كانت تُقال بصوتٍ خافت بين المعلمين، أو بين الطلاب الكبار، لكنها كانت تصدح في أذني كصرخةٍ مدوية، كجرس إنذار لا يتوقف عن الرنين،

يذكرني بوضعي، بحدودي، بكوني غريبًا. كنت أجلس في صمت، أراقب المعلم يشرح، أرى الحروف والكلمات تتراقص على السبورة، لكن عقلي كان غائباً، مشغولاً بأسئلة أكبر من المنهج الدراسي، أسئلة عن الوجود والهوية.

كنت أحلم بأن أكون طبيبًا، أرتدي المعطف الأبيض وأشفي الناس من آلامهم. أو مهندسًا، أُعيد بناء ما دمره الزمن والحرب. أو حتى كاتبًا، أُسجل القصص وأغير العالم بالكلمات. كل هذه الأحلام كانت تتردد في رأسي كأغنية جميلة، لكنها كانت تُقابل بجدارٍ سميك من الواقع القاسي، جدار يرتفع كل يوم ليحجب عني نور الأمل. كنت أرى أقراني، بعضهم في المخيم وبعضهم الآخر في الصور التي تصلني من أماكن أخرى، يحققون أحلامهم، يختارون مساراتهم، بينما أنا أُجبر على تأجيل حلمي

يومًا بعد يوم، إلى أجل غير مسمى، وكأنني أقف في طابور طويل لا نهاية له.

في الليل، كنت أنظر إلى السماء الصافية من فتحة صغيرة في الكرفان، أعد النجوم المتلألئة، وأتساءل بصوت خافت لا يسمعه أحد سواي: هل سأظل هنا إلى الأبد؟ هل سأظل أحمل لقب "لاجئ" حتى مماتي، حتى لو كبرت وشاب رأسي؟ كانت هذه الأسئلة تؤرقني، تمنع عني النوم، وتجعل الأفكار تتصارع في رأسي كعاصفة لا تهدأ. كنت أتساءل: هل قدر كل لاجئ أن يعيش هذه الحياة؟ أن يظل محبوسًا بين أسوار المخيم، أو أسوار كلمة تحدد مصيره؟ كنت أُغمض عينيّ بقوة، أحاول أن أرى شيئًا آخر، أن أرى قريتي، بيتنا، البرية، لكن كل ما أراه هو سواد لا متناهي.

مرت السنوات، سنوات ثقيلة كأنها تحمل قرونًا من الزمن. كبرت، ولم يكبر معي فقط جسدي الذي بدأ يشتد، بل كبرت معي كلمة "لاجئ".

أصبحت جزءًا لا يتجزأ مني، تسللت إلى أعماقي، لا يمكنني التخلص منها. أصبحت تُحددني، وتُقيدني، وتمنعني من الطيران عاليًا في سماء أحلامي، كطائر بجناح مكسور. كنت أشعر وكأنها سلسلة غير مرئية تربطني إلى الأرض، إلى هذا المخيم، وتمنعني من التحليق نحو فضاء أوسع.

لكنني، رغم كل شيء، رغم كل اليأس الذي حاوطني، لم أفقد الأمل تمامًا. كانت هناك شرارة خافتة في أعماقي، تتوهج أحيانًا، تذكرني بأنني ما زلت حيًا. كنت أؤمن في أعماق قلبي بأن هناك يومًا سأتحرر فيه من هذه الكلمة اللعينة، وأحقق أحلامي، مهما كانت الظروف قاسية، ومهما بدت المستحيلات كبيرة. كان هذا الإيمان الخفي هو الشمعة الوحيدة التي أضاءت لياليّ المظلمة.

وفي أحد الأيام، بينما كنت أجلس وحيدًا في زاوية الكرفان، أراقب أخي الأصغر وهو يرسم بضع خطوط على ورقة قديمة، خطرت لي فكرة. ربما

لا أستطيع أن أغير واقعي الخارجي الآن، لكنني أستطيع أن أغير واقعي الداخلي. قررت أن أبدأ من جديد. قررت أن أكتب قصتي، ليس فقط لنفسي، بل لأُخبر العالم عن معاناتي، وعن أحلامي المؤجلة، عن صراعي مع هذه الكلمة التي كادت تقتل روحي. قررت أن أكون صوتًا لكل من لا صوت له، لكل طفل لاجئ يشعر بالضياع، وأن أُثبت أن اللجوء ليس نهاية الطريق، بل هو بداية جديدة، بداية لتحدٍ عظيم يمكن أن يصنع المستحيل.

وهكذا، بدأت أكتب، وأكتب، وأكتب. كانت كلماتي الأولى متلعثمة، ثقيلة، لكنها كانت تخرج من أعماق روحي. كتبت عن طفولتي التي سُرقت، وعن أحلامي التي تكسرت، وعن معاناتي في هذا المخيم الذي تحول إلى سجن، وعن شرارة الأمل التي لم تنطفئ تمامًا. كتبت لأُخبر العالم أنني، رغم كل شيء، ما زلت أحلم، وما زلت أؤمن بأن الغد يحمل شيئًا أفضل، وما زلت أُحارب من أجل حقي في الوجود، في أن أكون إنسانًا له قيمة، لا مجرد

لاجئ. كانت كل كلمة أكتبها تزيد من قوتي، تزيد من إصراري، وتزيد من وضوح الرؤية أمام عينيّ. كل سطر كان خطوة صغيرة نحو الخلاص، نحو استعادة ذاتي الضائعة.

وهكذا، انتهى فصل من حياتي... فصل من اليأس، من الضياع، من التيه. ولكن، في طياته، بدأت بذور الأمل تنمو، وبدأت أجد صوتي، وأجد نفسي، أو على الأقل، أبدأ في البحث عن "من سأكون."

الفصل الرابع

استعادة الذات

كنتُ في الصف الأول الابتدائي حين بدأ كل شيء... حين كانت الحياة كلها عبارة عن طريق المدرسة المليء بالحصى، ورائحة دفاتر جديدة تنتظر أول حروف تُخطّ عليها بخجل، وأم تمشط شعري بعناية فائقة، تداعبه بأصابعها الحنونة وهي تعد لي ساندويشًا صغيرًا من جبن وزيت زيتون، يغلفه ورق الخبز البني ويدسّ في حقيبتي الصغيرة ككنز. كانت تلك هي تفاصيل عالمي، كانت هي أركان يومي التي لا تتغير، تمنحني شعورًا عميقًا بالثبات رغم كل شيء.

كانت الحياة بسيطة، حتى وإن كانت الخيمة التي أعيش فيها ليست منزلًا حقيقيًا بأسواره الصلبة وجدرانه العالية. كانت مجرد قطعة قماش سميكة وأعمدة معدنية، لكنها كانت تمنحنا ظلًا ودفئًا في ليالي المخيم الباردة، وتستر عيوبنا عن أعين الغرباء. كنت أراها كقلعة صغيرة تحمي أحلامنا

الهشة. أما الآن، ومع مرور السنين، فقد تغير كل شيء. لم أعد ذلك الطفل الصغير الذي يرى العالم بعينين بريئتين.

لكنني كبرت. مرت الأعوام كأنها تحبو في رمل الزمن، زاحفة ببطء وقسوة. عام تلو عام، والمخيم هو ذاته، والكرفانات هي ذاتها، وأنا هنا، أقف في نفس المكان الذي بدأ فيه عالمي بالانهيار. وها أنا اليوم في الصف الخامس، في نفس المخيم، لكن بعينين مختلفتين، عينين رأتا الكثير من الحزن والتعب، وبقلب أثقل مما يجب أن يحمله طفل في العاشرة من عمره. كان الألم قد حفر تجاعيده الصغيرة على وجهي، وكأنني عجوز في جسد طفل.

مع بداية هذا العام الدراسي، جاء تغيير بسيط لكنه لم يخلو من وقع خاص. نُقلت إلى مدرسة جديدة، أقرب قليلًا إلى مكان سكني. لم أبالِ كثيرًا، كنت قد اعتدت ألا أتعلق بأي مكان، ألا أضع جذورًا عميقة، فلا شيء يدوم،

وكل ما أحبه يميل إلى الاختفاء فجأة. كنت أتساءل دائمًا: هل سيتبعني هذا التغيير؟ هل ستُصبح هذه المدرسة أيضًا مجرد محطة عابرة في رحلة لا أعرف نهايتها؟

وفي صباحٍ صيفي دافئ، كنت أمشي في الأزقة الترابية للمخيم، والشمس تلسع وجهي، ورائحة الغبار تملأ رئتيّ. دخلت الصف لأول مرة، كان هدوء المكان غريبًا على مسمعي بعد صخب الأزقة. كان المعلم الجديد ينتظرنا بابتسامة غير عادية، ابتسامة عريضة تحمل في طياتها شيئًا من النور، لم أدرِ إن كانت حقيقية نابعة من القلب أم مجرد واجب تربوي يفرضه عليه عمله. لكنها كانت مختلفة، كانت مختلفة عن ابتسامات الشفقة التي اعتدت رؤيتها على وجوه الكبار.

كان وجهه مشرقًا كقرص الشمس في عز الظهيرة، يملك من المهابة والوقار ما يُجبرك على الإنصات إليه بتركيز، ومن الطيبة والحنان ما

يجعلك ترغب في البوح له بكل أسرارك. كانت عيناه عميقتين كالبحر، فيهما حكمة السنين ودفء الأبوة. جلس خلف مكتبه الخشبي القديم، وبدأ يتعرّف على الطلاب واحدًا تلو الآخر، يسأل عن أسمائهم، وعن أحلامهم التي كانت تتراقص على شفاههم الصغيرة ببراءة. كل طفل يذكر اسمًا وحلمًا، "طبيب"، "مهندس"، "معلم"، "أريد أن أبني بيتنا القديم."

حين جاء دوري، سألني باسمي. قلت له إياه كما تعوّدت، محمد. لكن شيئًا داخلي كان خافتًا، كأنني ألفظ شيئًا لا أؤمن به، كأن هذا الاسم لم يعد يخصني. لم أعد أعلم إن كان لي الحق في أن يكون لي اسم، في أن أملك تعريفًا خاصًا بي، أن أكون شخصًا له ملامح تختلف عن الآخرين، لا مجرد لاجئ آخر في هذا المخيم الكبير. كان اسمي مجرد كلمة، بلا روح.

ثم سألني السؤال الذي سمعته مئات المرات من قبل، في كتب التعبير، في الإذاعة المدرسية كل صباح، في صور المعلّقات على جدران الصفوف: "ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟"

صمتُّ. لم أجد كلمة تخرج مني .قلبي صمت قبلي، وكأنه يرفض الإجابة. شعرت وكأنني تائه في صحراء واسعة، لا أرى فيها أي طريق أو وجهة. نظرت إلى يديه الكبيرتين، إلى عينيه اللتين تحملان كل هذا الدفء، إلى الأرض الترابية التي كانت تحت قدمي... لكني لم أستطع النطق. كانت الكلمات تتجمد على شفتي، أحاول أن أُشكّل جملة، أي جملة، لكنها كانت تتكسر قبل أن تخرج.

قال لي المعلم بهدوء صوت ينساب كالماء العذب: "ما بك؟ أجبني يا بني، ألا تحلم أن تكون شيئًا؟ ألا ترى لنفسك مكانًا في هذا العالم؟" كانت نبرته تحمل مزيجًا من العطف والتشجيع، لا توبيخًا.

قلت له بصوتٍ منخفض يكاد لا يُسمع، وكأنه صادر من بئر عميق: "لا... لا أريد أن أكون شيئًا. الحياة هي هذا اليوم الذي أعيشه، هذا الصباح الذي أستيقظ فيه، وهذا الليل الذي أغمض عيني فيه. الأمس لا أريده أن يعود بكل ما فيه من ذكريات مؤلمة، والغد لا أظن أنه سيأتي لي بشيء جديد، ولا أرى أنه سيحمل أي أمل." كانت هذه هي قناعتي الراسخة في تلك اللحظة، كنت أرى الحياة كنقطة، بلا ماضٍ أو مستقبل.

ارتسمت على وجهه دهشة لم تخلُ من الحزن العميق. لم يكن يتوقع مثل هذه الإجابة من طفل في مثل سني. جاء وجلس بجانبي، جلسة متأنية، حانية، كأب يجلس بجانب ابنه المكسور. همس لي بصوت الأب لا المعلّم، صوت دافئ اخترق أسوار قلبي: "اسمعني يا بني... الأهداف لا تُصنع من الراحة ولا تُقطف من أغصان الأمان. الأهداف تُولد من رحم الصعوبات، تُشحذها التحديات. الحياة لم تُخلق لنعيشها خامدين، مستسلمين للظروف،

بل خُلقت لنغلبها، نركض خلفها بشغف، ننتصر عليها بكل قوة. أنت لم تُخلق للحياة، بل الحياة خُلقت لك، لِتُسطّر فيها قصتك، لِتُحدّد مسارها".

سكت قليلًا، نظر في عينيّ مباشرة، وكأنه يرى ما في أعماق روحي، ثم أكمل: "قد تُقيّدك الأيام، قد تضعك الظروف في زنزانةٍ بلا شبابيك، في مخيم، في غربة، لكن قلبك... قلبك يا بني لا أحد يملك أن يأسره، لا أحد يملك أن يحدّ من أحلامك. عقلك هو حريتك الحقيقية، وإيمانك هو بوصلتك. كل الأردن موطنك الآن. أنت لاجئ؟ نعم، هذه حقيقة، لكنك ابن وطن عظيم، ابن كرامة لا تُهان، ابن قصة لم تنتهِ بعد، قصة بدأت فصلها الأول هنا. ادعُ ربك، فإنه يجيب دعوة المضطر، ويفتح الأبواب المؤصدة. واذكر دائمًا أن الأقدار مكتوبة، وأنك لو رأيت الغيب وما خبأه الله لك، لرضيت بما كتبه الله لك واطمئن قلبك. قم وانهض. انفض عنك ثوب اليأس الثقيل. لا تخيب ظن بلدك الأصلي الذي ينتظر عودتك قوية، ولا ظن هذا

البلد الذي احتضنك، ولا ظن من يحبك، ولا ظن ربك. أنت لم تترك الوطن يا محمد. أنت خرجت منه لتقوى، لتبني نفسك، لتصبح أقوى، ثم تعود إليه يومًا ما، فتبني ما دُمّر، وتعالج الجراح، وتحمي الأرواح، وتزرع فيه زهورًا تُزهر من دمعك وتضحياتك".

ذلك الحديث لم يكن مجرد كلمات تُقال في حصة مدرسية، بل كان صوت طرق جدران قلبي الذي كان موصدًا، أيقظ في داخلي شيئًا كاد يموت إلى الأبد. كانت كل كلمة كحجر يُلقى في بركة راكدة، تُحدث دوائر تتسع وتتسع حتى غمرت روحي كلها. شعرت وكأنني أستيقظ من نوم عميق، من سبات طال أمده. لم أنم في تلك الليلة على الإطلاق. ظلّت كلماته تتردد في رأسي، كصدى بعيد لكنه واضح ومسموع، كأغنية لا تبارح الذاكرة. كنت أُفكّر في كل حرف، في كل نصيحة، في هذا الأمل الذي زرعه في داخلي فجأة.

في اليوم التالي، استيقظت مبكرًا قبل الجميع، حتى قبل صياح الديكة، وقبل صوت الريح على الكرفانات. غسلت وجهي بماءٍ بارد أيقظني أكثر، غسل عني بقايا اليأس التي كانت تلتصق بي. لبست ملابسي المدرسية البسيطة، وحملت حقيبتي على كتفي كأنني أحمل سلاحًا جديدًا، سلاح المعرفة، سلاح الأمل، سلاح التحدي، ومضيت إلى المدرسة بخطوات سريعة وثابتة.

كنت مستعدًا للقاء حياةٍ جديدة، حياة كنت أظن أنها انتهت.

بدأت أدرس بجد لم أعهده من قبل. تغيرت نظرتي للأشياء بشكل جذري. لم أعد أرى في "اللاجئ" صفة نقص أو ذل، بل صفة تحدٍ، صفة قوة خفية، مصدر إلهام يجب أن أستلهم منه عزيمتي. صرت أرى في كل تحدٍ فرصة، وفي كل صعوبة طريقًا نحو النمو. صرت من المتفوقين في صفي، بل في مدرستي كلها. علاماتي كانت دائمًا في الصفوف الأولى،

تسرّ قلبي وقلب أمي. أصبحت أراجع دروسي وحدي، أكتب أكثر مما يُطلب مني في الواجبات، أسأل الأسئلة التي لم أكن أجرؤ على طرحها من قبل، أبحث عن الإجابات في الكتب وفي أي مصدر أستطيع الوصول إليه، أتحمّس لكل معلومة جديدة وكأنها كنز وجدته. لم أعد أذهب للمدرسة فقط لأمضي الوقت، بل لأشرب من نبع العلم الذي بدأ يروي عطشي.

وبعد فترة، لم يعد التميز وحده يكفيني. شعرت أنني أريد أن أتوسع، أن أفهم ما وراء الدروس، ما وراء المناهج المدرسية. صرت أقرأ عن الفضاء الفسيح وأسراره، عن الخلايا الحية وأعاجيبها، عن الحروب التي دمرت بلادي وعن السلام الذي يحلم به الجميع. صار لدي شغف لا ينتهي، شغف بالمعرفة، شغف بالحياة، شغف ببناء مستقبل لنفسي ولغيري.

وفي لحظة من اللحظات، وبين ورقةٍ وأخرى أخط عليها أحلامي، بين دفعة حبرٍ ومعلومة جديدة أكتسبها، وجدت وجهي الحقيقي. رأيت انعكاسي الحقيقي في مرآة الروح. عرفت من أكون، أو بالأحرى: من سأكون.

سأكون من يُكتب عنه التاريخ، لا من يُكتب عليه مصيره .سأكون من يُعلّم الآخرين ألا يقفوا حيث أسقطتهم الظروف، بل ينهضوا أقوى .سأكون الصوت القوي الذي يصرخ بالأمل، لا الصدى الباهت الذي يتلاشى.

ومضيت... أركض نحو حلمي، أحضنه بكل جوارحي، أتعثر أحيانًا، لكنني أنهض بسرعة أكبر، وأمضي من جديد بخطوات لا تعرف التراجع.

وكلما صادفت معلمًا جديدًا في مسيرتي التعليمية، أو في الدورات التدريبية التي بدأت أحضرها، أخبرته أن هناك رجلًا جلس يومًا بجانبي، همس في أذني كلمات لم تكن مجرد كلمات، بل كانت دواءً لروحي، وأعاد لي ذاتي التي كادت أن تضيع في زحام الغربة.

وهكذا... استعدت نفسي .استعدت الطفل الذي ظن أن الحياة توقفت في خيمة، وأن أحلامه دفنت تحت تراب المخيم .استعدت الإيمان الذي تاه مني في زحمة اليأس، واستعدت الابتسامة الحقيقية التي لم تكن تزين وجهي منذ زمن طويل .ولم أعد فقط "لاجئًا ..."بل أصبحت حكاية. حكاية أمل وإصرار، حكاية صمود في وجه العواصف.

الفصل الخامس

الصحوة

لم يكن في نيّتي أن أصبح مختلفًا، لم أستيقظ يومًا وقررت أن أكون استثنائيًا، فالظروف هي التي صنعتني. لكن الحياة، بتقلّباتها التي لم أعد أجد لها تفسيرًا منطقيًا، علّمتني درسًا قاسيًا وجميلًا في آن واحد: أن الأبواب لا تُفتح دائمًا، وأن الفرص لا تأتي دائمًا إليك، بل عليك أن تخلقها بنفسك، أن تنحتها من صخر اليأس، وأن تمشي إليها حتى لو كانت خطواتك متعثرة. هذا الدرس لم يأتِ من كتاب، بل من عمق التجربة، من صراع الروح مع واقعها.

كنت لا أزال أعيش في ذلك المخيم، الذي مع مرور الوقت لم يعد مجرد كرفانات بيضاء متراصة وأزقة ترابية تثير الغبار. لقد بات شيئًا يشبه الوطن، وطنٌ مصغر، لكنّه يحمل نبضًا يشبه نبضي، وروحًا تشبه روحي، روح الصمود والبقاء. كان المخيم يزداد اتساعًا، يضم قصصًا لا حصر

لها، وجوهًا مألوفة باتت جزءًا من يومي. فيه كبرت، تعلمت، بكيّت، وضحكت، ورأيت الأمل يتوهج في عيون الأطفال رغم كل شيء.

في إحدى لحظات الوعي الجديدة، تلك اللحظات التي تلوح كأضواء كاشفة في عتمة الروح، وجدتني أتنفس حلمًا لم أكن أعلم بوجوده، أستفيق على طموح لا يُغادرني، يتملكني. شعرت أن الوقت قد حان... لأستيقظ فعلاً من سبات الضياع الذي طال، لأرى العالم بوضوح أكبر، لأعرف ما الذي عليّ فعله. كانت الصحوة ليست مجرد فكرة، بل نداءً من أعماق قلبي، يصرخ طالبًا التغيير.

بدأت أبحث بنهم، أتحرّك بخطوات أصبحت أكثر ثقة، أستفسر من كل من حولي، أمدّ يدي لكل جهة يمكن أن تُشعل في داخلي شعلة معرفة، أو تفتح لي بابًا صغيرًا في هذا الجدار السميك من المجهول. لم تكن هناك طرق واضحة، لكن كان هناك إصرار لا يتزعزع. وسرعان ما اكتشفت أن هناك

منظمات للرعاية والتعليم داخل المخيم، تعمل في صمت بعيدًا عن الأضواء. كانت تقدّم دورات في تطوير الذات، ورشات تدريب على مهارات الحياة، حصص تقوية في المواد الدراسية التي كنت قد أهملتها.

لم أتوانَ لحظة. لم أرفض أي فرصة. لم أتأخر عن أي موعد. كنت أرى في كل دورة نافذة صغيرة تطل على عالم أكبر، وفي كل ورشة تدريب سلمًا جديدًا أصعده. كنت أستيقظ في الثامنة صباحًا، لا لأن أحدًا أيقظني أو أجبرني، بل لأن في قلبي شيئًا يدفعني، محركًا داخليًا لا يتوقف، وشغفًا جديدًا يشتعل كالنار. كنت أرتدي ملابسي البسيطة وأتوجه إلى المركز، أتعلم بجدية غير مألوفة، أستمع إلى كل كلمة تُقال بتركيز، أدوّن الملاحظات في دفتري الصغير الذي بات رفيقي، ثم ألعب قليلًا كما يفعل الأطفال في استراحة الغداء، ولكن دائمًا بنظرة مختلفة، نظرة ترى ما وراء اللعب، نظرة تحمل همًّا أكبر من مجرد اللهو.

أعود إلى البيت عند الثانية عشرة ظهرًا، أتغدى على عجالة، أتناول شيئًا من الطعام البسيط الذي تعده أمي، ثم أذهب إلى مدرستي، حيث الدروس الرسمية، الروتين المعتاد، والكتب التي بدأت أراها كنزًا لا يُفنى. كنت أوازن بين دراستي الرسمية وبين الدورات الخارجية، منهكًا جسديًا، لكن روحي كانت تزداد حيوية.

وعند الثالثة مساءً، حين يعود الجميع لينام قيلولته، أو يلهو في الأزقة، كنت أنا أبدأ لحظة التفكير: كيف أجعل مخيمي مكانًا أفضل؟ كيف أزرع فيه شيئًا يُبقي أثري؟ كيف أترك بصمة في هذا المكان الذي احتضنني؟ لم أعد أرى المخيم كمجرد سجن، بل كمساحة للتغيير، لمختبر ضخم يمكنني أن أحدث فيه فارقًا.

كنت أطرح على نفسي عشرات الأفكار: مشروع لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، خطة لتجميل المكان الذي عشنا فيه طويلاً، مبادرة لجمع الكتب

المستعملة وإنشاء مكتبة صغيرة، جلسات توعوية للأطفال عن أهمية التعليم أو عن الصحة والنظافة. كانت الأفكار تتوالد في رأسي كشلال لا يتوقف، كل فكرة أجمل من سابقتها.

ولكن دائمًا، كانت هناك العقبة الصامتة، الكبيرة، الصلبة: العُمر. كنت صغيرًا جدًا، بنظر الكبار الذين اعتادوا رؤيتي كطفل يلهو. "لا تزال طفلًا يا محمد، اهتم بدراستك فقط"، كانوا يقولون لي بنبرة حانية، لكنها كانت تخفي خلفها حاجزًا غير مرئي. لم أكن أشعر بأنني طفل يحتاج إلى الحماية أو التوجيه في كل شيء. كنت أشعر أن داخلي رجل، رجل قد تجاوز سِنّه مرتين، يحمل همومًا أكبر من جيله، ويسعى لأهداف تفوق عمره بكثير. كان هذا الصراع بين ما أراه في نفسي وما يرونه فيّ الآخرون تحديًا جديدًا.

هكذا عشت أيامي، بين دراسةٍ وتعلمٍ في المراكز، وأحلامٍ مؤجلة كانت تتوهج في داخلي كجمر تحت الرماد، حتى بلغت السادسة عشرة من عمري. عند هذا العمر، لم أعد ذلك الطفل الذي يبتلع حزنه بصمت، أو يركض هاربًا من واقعه.

كنت قد بدأت أتحول... بدأت أكون أنا، الشخص الذي كنت أبحث عنه منذ زمن طويل، الشخص الذي تحدث عنه معلمي في الفصل الرابع. كبرت، ولم يكبر معي فقط جسدي الذي أصبح أقوى وأكثر صلابة، بل وعيي أيضاً. صرت أستوعب ما حولي بعمق أكبر: لماذا نحن هنا؟ ما معنى اللجوء بكل تفاصيله؟ وما الذي يمكن فعله لتغيير هذا الواقع؟ لم تعد الأسئلة تخيفني كما كانت في الماضي، بل صارت تحفّزني، تدفعني للبحث عن الإجابات، عن الحلول.

صرت أكتب أكثر من ذي قبل. أكتب كل فكرة جديدة تلوح في ذهني، كل حلم أراه في يقظتي ومنامي، كل وجع أشعر به، وكل أمل يسطع. دفتر ملاحظاتي الصغير صار مليئًا بالأسطر التي تحكي قصتي، قصتنا كلاجئين، قصص الصمود والتحدي. كنت أقرأ كثيرًا، لا أكتفي بالكتب المدرسية. كنت أقرأ عن التعليم الحديث، عن التنمية المستدامة، عن القادة الذين بدأوا من لا شيء، عن العقول التي غيرت وجه العالم. كنت أبحث عن نفسي فيهم، وأجد شيئًا من ظلي بين سطورهم، وكأنني أرى انعكاسي في صفحات حياتهم.

وفي يوم من الأيام، جاءت فرصة للمشاركة في ندوة شبابية داخل المخيم. كانت هذه الندوة من تنظيم مركز محلي بالتعاون مع إحدى الجمعيات الدولية، وموضوعها كان "أنت والتغيير في مجتمعك". كان العنوان يلامس روحي مباشرة. لم أتردد.

شاركت، رغم كل التوتر الذي كان يسيطر عليّ. وقفت أمام العشرات من الشباب والكبار، قلبي كاد يخرج من صدري، لكن صوتي كان ثابتًا، وكلماتي صادقة ونابعة من أعماق روحي. تحدثت عن أحلامي الكبيرة، عن أهمية التعليم كسبيل وحيد للنهوض، عن الأطفال الذين لا يجدون قلمًا أو دفاتر، عن المخيم الذي يحتاج إلى الضوء، إلى الأمل، إلى لمسة إنسانية تعيد إليه الروح. تحدثت عن أهمية أن نكون جزءًا من الحل، لا جزءًا من المشكلة.

بعد انتهاء كلمتي التي استمرت لعدة دقائق، جاءني أحد المسؤولين عن الندوة، رجل وقور ينظر إليّ بعينين لامعتين. قال لي بصوتٍ خافت، لكنه كان يحمل ثقل الإعجاب: "نحتاج لأشخاص مثلك يا بني... لا تتوقف عن هذا الشغف. استمر في طريقك." كانت كلماته بمثابة وقود جديد لروحي، دفعة قوية لمسيرتي.

ومن هنا، بدأت الصحوة الحقيقية. لم أعد مجرد مشارك، بل أصبحتُ جزءًا فاعلاً. أصبحت أشارك في مبادرات متعددة، أساعد في تنظيم الفعاليات المجتمعية، أشارك في تعليم الصغار الذين يشبهونني في بدايتي، أرسم معهم، أقرأ لهم القصص، أكتب معهم أحلامهم، أحاور الكبار وأستمع إلى تجاربهم. بدأت أرى أثر ما أفعل في عيون الناس، في ضحكات الأطفال. كنت أرى الطفل الذي يشبهني وهو يضحك بعد أن يفهم درسًا صعبًا، وأشعر أني بدأت أزرع بذور التغيير، وأن هذه البذور ستنمو يومًا ما وتؤتي ثمارها.

كل يوم كنت أستيقظ وأنا أعلم أن على أن أفعل شيئًا... لا يهم إن كان هذا الشيء صغيرًا، المهم أن يكون له أثر، أن يترك بصمة في حياة أحدهم. أصبحت أؤمن بقوة الأفعال الصغيرة في إحداث التغيير الكبير.

مرّت سنتان بعدها، كنت قد تجاوزت ١٨ عامًا، وأصبحت في نهاية مرحلتي المدرسية، على أعتاب ما يسمونه "التوجيهي."

حين نظرت للوراء، أدركت أنني لم أكن مجرد لاجئ ضائع، بل كنت مشروعًا صغيرًا لحلم كبير، حلم بدأ يتشكل بوضوح. كل دورة حضرتها، كل كلمة قيلت لي وشجعتني، كل دفعة أمل منحني إياها الناس من حولي، صنعت مني شخصًا مختلفًا تمامًا عما كنت عليه في بداية الرحلة.

لم أعد أخجل من كرفانتي، بل صرت أراها مهدًا لحكاية عظيمة، بداية لقصة صمود تستحق أن تُروى. لم أعد أخاف من كلمة "لاجئ"، بل صارت راية أرفعها بفخر، وأقول للعالم كله: نعم، أنا من هناك، من المخيم، من أرض التحديات، لكنني ذاهب إلى ما هو أبعد من هنا، إلى حيث تقودني أحلامي، إلى حيث أستطيع أن أحدث فرقًا. كانت هذه هي الصحوة التي غيرت مسار حياتي إلى الأبد.

الفصل السادس

لحظة الضوء الأولى

لم يكن الأمر مجرد تسجيل في مركز للابتكار الاجتماعي؛ لم تكن مجرد ورقة أملأها ببياناتي وأسلمها لموظف. كان بالنسبة لي **طَرْقًا على باب ربما يقودني إلى حياةٍ أوسع** من حدود المخيم الضيقة، من أسلاكه الشائكة التي كانت تلفنا كالأفاعي، من نظرات الناس المعتادة التي كانت ترى فينا مجرد أرقام في سجلات اللاجئين. كان هذا الباب يمثل فرصة للتحليق، للخروج من قوقعة اليأس التي كادت تلتهمني.

يومها، حين وضعت اسمي بخط يدي على استمارة التسجيل، كان قلبي يدقّ بطريقة مختلفة، غير منتظمة، كطبل حرب صغير. مزيج من الحماس الذي كان يغمرني حتى أطرافي، والخوف الذي كان يمسك بتلابيبي.

حماس أنني أخيرًا أبدأ شيئًا ملموسًا، أخطو أولى خطواتي نحو عالم أوسع، وخوف أن يُقال لي من جديد، تلك الكلمات التي حفرت عميقًا في روحي: "أنت لاجئ، احلم على قدّك، لا تبالغ في طموحاتك، هذا ليس مكانك."

كانت هذه الكلمات كالشبح يطاردني، يهمس في أذني كلما حاولت أن أرفع رأسي.

بدأت التدريبات. كانت الجلسات مكثفة، المعلومات تتدفق بغزارة. سمعت لأول مرة كلمات ومصطلحات لم أعهدها من قبل، كلمات كانت تبدو لي كشفرات سرية لعالم آخر: "ريادة"، "مشروع"، "تمويل"، "ابتكار". كانت هذه المصطلحات غريبة، لكنها لم تكن مخيفة. على العكس، كانت تثير فضولي، تفتح لي آفاقًا لم أكن أعلم بوجودها. كنت ألتقطها بشغف، مثل طفل يرى العالم لأول مرة، يتعرف على ألوان وأشكال جديدة. كنت أدوّن كل كلمة في دفتري، أتعلم كل مفهوم جديد، أتنفّس فكرة أنني أقدر على عمل شيء، أن أكون شخصًا له أثر، أن أترك بصمة في هذا العالم الواسع. كنت أمضي ساعات في قراءة المواد التدريبية، أبحث عن معاني الكلمات

الصعبة، أحاول أن أربطها بواقعي، أن أرى كيف يمكن لهذه الأفكار الكبيرة أن تتجسد في زوايا مخيمي.

وبعد انتهاء التدريب النظري، جاء وقت العمل الجاد. طُلب منا تقديم مشاريع. جمعت ثلاثة من أصدقائي المقربين، من أولئك الذين حلمنا معًا ونحن نلعب في الأزقة الترابية، وشاركنا لحظات اليأس والأمل. كانوا من الذين رأوا فيّ شرارة التغيير. قلنا لهم بنبرة يائسة لكنها تحمل بصيص أمل: "لنجرّب، شو خسرانين؟" فالمحاولة لن تكلفنا سوى بعض الوقت والجهد، وكنا نملك منهما الكثير.

تقدّمنا بمشروعنا للجنة التقييم. كانت القاعة صغيرة، لكنها بدت لي ضخمة ومهيبة. ثلاثة أشخاص يجلسون خلف طاولة خشبية، يحدقون فينا بنظرات جادة. دخلنا القاعة، وكل شيء فيّ كان يتوتّر: صوتي الذي كاد يختنق في حلقي، يديّ اللتان كانتا ترتعشان رغمًا عني، نظرتي التي كانت تتجنب

عيونهم وتُحدق في الأرض الصلبة. لم نكن مستعدين حقًا. كلماتنا كانت ضعيفة، رؤيتنا للمشروع كانت مهزوزة وغير واضحة، لم نملك الثقة الكافية. خرجنا بعد دقائق معدودة، ومعنا قرار الرفض القاسي.

أصدقائي... أُطفئت فيهم الشعلة سريعًا. اليأس تسلل إلى قلوبهم كالثلج البارد. استسلموا للواقع، تراجعوا عن الفكرة، قالوا بمرارة: "خلص، مش إلنا. هذا الحكي الكبير مش لولاد المخيم." كان اليأس يرتسم على وجوههم بوضوح. وكنت أنا على وشك اللحاق بهم، على وشك الاستسلام للظروف القاسية، أن أُلقي أحلامي خلف ظهري كأي شيء آخر فقدته. لكنني تذكّرت جملة قالها لي معلمي ذات يوم، حين رآني محطمًا بسبب رسوب في امتحان أو فشل في لعبة" **:أنت مش مطالب تنجح من أول مرة، أنت مطالب ما تيأس".**

تلك الليلة، عدت إلى البيت، وقلبي يحترق بنار الهزيمة. جلست وحدي في الزاوية المعتادة من الكرفان، حيث كانت أحزاني تلتصق بي. لم أبكِ بصوت عالٍ، لكن شيئًا ثقيلًا كان على صدري، كصخرة ضخمة تكاد تخنق أنفاسي. كنت أشعر بأن كل الأبواب قد أُغلقت في وجهي، وأن أحلامي كانت مجرد هباء منثور.

ثم نهضت. كان النهوض قرارًا صعبًا، كأنني أرفع جبلًا بيديّ العاريتين. قلت بصوت مسموع لنفسي، صوت مليء بالتحدي" **:سأحاول من جديد... ولو وحدي ".**كانت تلك اللحظة هي لحظة الميلاد الحقيقية لإرادتي الصلبة.

سهرت. سهرت حتى تشققت جفوني من التعب، وأصبحت عينيّ حمراوين. كانت ليالي المخيم مظلمة وصامتة، لكن عقلي كان يشتعل بالأفكار. كنت أبحث عن حلول، أقرأ كل ما يقع تحت يدي من مقالات وكتب عن المشاريع، أكتب الخطط على أوراق قديمة، أخطط لكل تفصيله صغيرة

وكبيرة، أراجع، أعدّل، وأحضّر... كل هذا في صمت تام، دون دعم خارجي، دون فريق يشاركني العبء. وزّعت المهام على نفسي، وكأنني جيش صغير من شخص واحد، جيش لا يريد الهزيمة مهما كانت التحديات. كانت طاقتي لا تنضب، وشغفي هو وقودي الوحيد.

ثم ذهبت... وقدّمت مشروعي مرة أخرى. هذه المرة، كنت مختلفًا. كانت كلماتي أقوى، رؤيتي أوضح، وثقتي بنفسي كانت قد نمت رغم الخوف الكامن. شعرت بأنني أقدم قطعة من روحي.

وهذه المرة... نجحت.

لم يكن النجاح مجرد رقم في سجل، ولا مجرد "تمويل" بسيط. كان دمعة فرح ساخنة سقطت من عيني دون أن أشعر بها، غسلت كل سنوات التعب واليأس. كان شعورًا بأنني حيّ، أنني أستطيع، أنني لست مجرد رقم في

سجلات اللجوء، بل كائن بشري قادر على صناعة الفرق. شعرت بأنني أستعيد أنفاسي، أتنفس الحياة من جديد.

بدأت رحلتي العملية. مشروعي لم يكن ماديًا يهدف للربح، بل كان معنويًا بحتًا يهدف إلى خدمة مجتمعي. كان **"ابتكارًا صغيرًا "**يهدف إلى تبسيط حياة الناس في المخيم. كان عبارة عن **عباية إلكترونية صغيرة (روبوت بسيط) مزودة بشاشة عرض** تهدف إلى مساعدة الوافدين الجدد إلى المخيم، وتُقدم لهم معلومات أساسية عن المخيم، أماكن توزيع المساعدات، المراكز الصحية والتعليمية. كانت بمثابة دليل متنقل لهم في متاهة الكرفانات المتشابهة. لم تكن عربابة عادية، بل كانت تجسيدًا لفكرة أن التكنولوجيا يمكن أن تُسخّر لخدمة أبسط الاحتياجات الإنسانية.

كنت أعمل بيديّ، أركض في كل اتجاه، أشرح فكرة العربابة للوافدين، أساعدهم في استخدامها، أراقب الأطفال يستفيدون من الخرائط المبسطة

عليها، وأشعر أنني أزرع بذرة في تراب المخيم، بذرة أمل ومعرفة. كانت كل ابتسامة أراها على وجوههم تمنحني طاقة لا نهائية. كان مشروعي هذا نداءً داخليًا يقول لي: "هاي أول خطوة يا محمد... كمّل! لا تتوقف الآن".

ومع الوقت، بدأت تُفتح لي الأبواب، أبواب لم أكن أتخيل أنها موجودة. من مشروع صغير وبسيط... إلى مبادرات عديدة، حيث أصبحت أشارك في فرق عمل أكبر، إلى إشراف على مشاريع أخرى، وتنظيم فعاليات تعليمية وتوعوية، وتأثير حقيقي على حياة الكثيرين في المخيم. كنت أتعلم مهارات جديدة كل يوم، أصبحت أتقن استخدام برامج الكمبيوتر، وأتعلم مبادئ الإدارة والتواصل.

وذات مساء، بينما كنت أُراجع ملفًا لمشروع جديد في غرفتي الضيقة داخل الكرفان، رنّ هاتفي. كان صوت رجل من منظمة عالمية معروفة، صوت رسمي لكنه يحمل نبرة ودودة:

" ـــأهلاً محمد، كيف حالك؟" ـــ "الحمد لله، بخير" ـــ ".لدينا لك خبر مهم جدًا. تم ترشيحك لمسابقة عالمية للشباب المبتكرين. ستمثّل فيها بلدك (سوريا)، ومخيمك (الأزرق)، وأحلامك التي نؤمن بها".

ارتجفت يدي، كاد الهاتف أن يسقط مني. لم أصدق ما أسمعه. مسابقة عالمية؟ أنا؟ وافقت على الفور. وتقدّمت بطلب المشاركة، وأنا أحمل على كتفيّ حلمًا أثقل من أن يحمله شاب في مثل سني.

وقفت بين نخبة من الشباب من مختلف أنحاء العالم، عقول لامعة، أفكار عظيمة، كل منهم يمثل دولة عظيمة. شعرت فجأة أنني صغير جدًا. ضائع في هذا المحيط من العباقرة. هم لديهم كل شيء: الدعم، الموارد، التعليم المتقدم... أما أنا، فلدي "أمل"، لا غير، ومجموعة من المشاريع البسيطة التي قمت بها في مخيم.

عدت من المقابلة، وانتظرت النتيجة بشوق وقلق. كنت أُقنع نفسي مرارًا وتكرارًا: "لن يُقبل مشروعي، لا بأس... جربت، وهذا يكفي." كنت أحاول أن أُخفف من وطأة الخيبة المحتملة.

رن الهاتف مجددًا بعد أسابيع. الصوت نفسه، صوت الرجل من المنظمة :

" –كيف حالك، محمد؟"

" –الحمد لله... (لكن نبرة صوتي كانت مكسورة، خائفة من الخبر السيء)"

" –ليش صوتك حزين؟"

" –لا شيء... أعلم أن النتيجة وصلت".

" –صح. وصلت. وقولك شو؟ **تم قبول مشروعك. ستمثّلنا أمام ١١ دولة** من أقوى دول العالم في مؤتمر الابتكار".

سقط الهاتف من يدي هذه المرة حقًا. نظرت للسقف المعدني للكرفان، ودمعة ساخنة انزلقت على خدي، دمعة ممزوجة بالفرح والصدمة والامتنان. نجحت.

وأنا ما زلت داخل المخيم، بين الأزقة والأنقاض، في هذا المكان الذي كان سجنًا لي، حققت ما لم أظنه ممكنًا.

من هنا، من أعماق قلبي، علمت أن الأحلام لا تُسجن خلف الأسوار، مهما كانت عالية. لا تُقيّد بالمخيمات، مهما كانت ضيقة. الأحلام، إن سكنت قلبًا يؤمن بها بقوة، وعقلًا يخطط بذكاء، فإنها تطير حتى لو لم تملك جناحين.

واليوم، وأنا أتنقل بين المؤتمرات الدولية، وأشارك في الندوات العالمية، وأُلقي كلماتي في قاعات فخمة لم أكن أحلم بدخولها، أصافح أيادي شخصيات لطالما رأيتها في التلفاز...

أقول لنفسي وللعالم: كل ما حدث... بدأ من لحظة صدق، لحظة يأس، لكنني فيها قلت" :**مش رح أستسلم."**

وهنا وُلِد كل شيء. هنا، في هذا المخيم، في هذا الكرفان الصغير، وُلدت إرادتي التي لا تقهر.

الفصل السابع

بناء الجسور والصداقات

بعد أن بدأت شرارة الصحوة تتوهج في داخلي، وتغيرت نظرتي للحياة من مجرد البقاء إلى الرغبة في بناء الذات وإثبات الوجود، لم يعد التفوق في الدراسة مجرد هدف أتعقبّه بصمت بين دفاتري وكتبي، بل صار نتيجة طبيعية لهذا الشغف المتجدد، انعكاسًا لحياة داخلية بدأت تزهر. علاماتي المرتفعة لم تكن مجرد أرقام تُسجّل في دفاتري المدرسية، بل كانت دليلًا ساطعًا على أن العقل يمكن أن يتحرر، وأن الروح يمكن أن تنمو وتزدهر، حتى لو كان الجسد مُقيدًا بأسلاك المخيم الشائكة. كنت أعود إلى الكرفان كل مساء، وأنا أحمل في حقيبتي المتواضعة نتائج امتحاناتي الباهرة، التي كانت تزرع الابتسامة على وجه أمي المتعب، تلك الابتسامة التي لم أكن أراها كثيرًا، وتضيء عينيّ أبي الفخورين اللتين كانتا تحملان عبء سنوات طويلة من القلق. لم أكن أشعر بالتميز المنفرد عن زملائي، فلم أكن أرى نفسي أفضل منهم، بل كانت هذه النجاحات تدفعني لأكون جسرًا لهم، لأشاركهم ما تعلمته، لأشجعهم على الإيمان بقدراتهم الكامنة. ففي المخيم،

لم يكن النجاح ملكًا للفرد وحده، بل كان ملكًا للجميع، بصيص أمل يضيء للكل، رسالة بأن المستحيل ليس قدرًا.

مع تفوقي الدراسي، ووضوح رؤيتي الجديدة، بدأت أرى المخيم بعينين مختلفتين تمامًا، عينين لا ترى فيه فقط الكرفانات المتراصة والأسلاك الشائكة التي تحيط بنا كالجدار الأبدي، بل ترى فيه إمكانات كامنة، مجتمعًا شابًا ينبض بالحياة، ينتظر من يوقظ طاقاته الدفينة. كنت ألاحظ الوجوه الشابة التي تحمل في طياتها الكثير من الأحلام المنسية، الأيدي العاملة التي تفتقد للفرص، العقول النيرة التي تحتاج فقط لشرارة لتشتعل. هنا، في هذا الفضاء الضيق، بدأت أبحث عن كيفية تحويل هذه الإمكانات المعطلة إلى واقع ملموس، إلى مشاريع تضيء زوايا المخيم. لم أعد أرى المخيم كسجن كبير يحد من أحلامي، بل كساحة مفتوحة للتعلم والعمل، مختبرًا ضخمًا يمكن أن تولد فيه الأفكار العظيمة وتتحول إلى حقائق.

في هذه المرحلة الجديدة من حياتي، بعد أن وجدت ذاتي، بدأت أكون صداقات جديدة، صداقات حقيقية لم تكن مبنية على اللعب فقط كما في طفولتي، بل على الأحلام المشتركة والتحديات المتشابهة. كان هؤلاء الأصدقاء هم رفاق دربي في هذه الصحوة التي عشتها. أتذكر "علي"، كان شابًا هادئًا لكنه ذكي جدًا، يتمتع بعقل منظم، يحب الرياضيات والفيزياء مثلي، وكنا نقضي ساعات طويلة بعد انتهاء دروسنا الرسمية، نتبادل الأفكار المعقدة ونحل المسائل الصعبة معًا، حتى إننا كنا نرسم مخططات لمشاريع خيالية على الأرض الترابية خارج الكرفانات، نحلم بتطبيقات تكنولوجية لمساعدة أهل المخيم. وكانت "فاطمة"، فتاة طموحة، تتمتع بروح قيادية قوية وعزيمة لا تلين، كانت دائمًا تشجعني على المضي قدمًا، وتؤمن بقدرتي على إحداث فرق حقيقي. كانت فاطمة هي الصوت الذي يدفعنا جميعًا عندما نخور. هؤلاء لم يكونوا مجرد أصدقاء عاديين، بل كانوا عائلة ثانية لي في هذا المكان، سندًا وعونًا في كل خطوة. كنا نتبادل

الكتب التي نجدها بصعوبة في المراكز الثقافية القليلة، ونقضي الليالي نناقش الأفكار التي كانت تشتعل في رؤوسنا، نخطط لمستقبل لم نكن نعلم عنه شيئًا سوى أنه سيكون أفضل، وأننا سنكون جزءًا من صناعته. كانت تلك الجلسات الليلية في الكرفان، على ضوء مصباح خافت، من أجمل اللحظات التي عشناها، حيث كنا نُطلق العنان لأحلامنا بعيدًا عن واقع المخيم القاسي.

بدأت أشارك في الأنشطة اللامنهجية والمبادرات التي كنت قد بدأت فيها بعد الصحوة بشكل أكثر عمقًا وتنظيمًا. لم أعد مجرد مشارك عادي، بل صرت منظمًا لهذه الأنشطة، أُشرف على مجموعات عمل صغيرة، أساعد في توزيع المهام بين الشباب، وأدعم الأفكار الجديدة التي كانت تظهر من حولنا. كانت المبادرات بسيطة في بدايتها، لكنها كانت تحمل في طياتها قيمة عظيمة وأثرًا عميقًا. أتذكر إحدى المبادرات التي أطلقناها، وهي

"مكتبة الأمل الصغيرة ."كانت فكرتها بسيطة لكنها لامست قلوب الكثيرين: جمع الكتب المستعملة من سكان المخيم، ومن المنظمات الدولية التي كانت تزورنا بين الحين والآخر، ثم فرزها وتصنيفها بعناية، وإنشاء زاوية صغيرة في أحد المراكز المجتمعية كـ "مكتبة" يُمكن للأطفال والشباب أن يرتادوها للاستعارة والقراءة. كانت هذه المكتبة عبارة عن بضع رفوف خشبية متواضعة صنعناها بأيدينا من ألواح خشبية قديمة، لكنها كانت تحوي كنوزًا من المعرفة والحكايات. كنت أقضي ساعات طويلة بعد المدرسة أرتب الكتب، أُغلّف التالف منها بعناية فائقة، وأساعد الأطفال في اختيار قصصهم، أقرأ لهم بصوت عالٍ، وأرى الفرحة في عيونهم وهم يكتشفون عوالم جديدة. كانت سعادتي لا توصف عندما أرى طفلًا يمسك كتابًا جديدًا ويفتح صفحاته بشغف وحب، كأنه يفتح نافذة على عالم آخر، عالم بلا أسلاك ولا حدود.

في خضم هذه الأنشطة المتزايدة، بدأت تظهر لي فرص لمشاريع أكبر وأكثر طموحًا. من بينها، كان مشروع **"أكوافيتا ."**كانت أكوافيتا مبادرة بيئية تهدف إلى تعليم الأطفال والشباب في المخيم عن أهمية المحافظة على المياه وإعادة تدويرها واستخدامها بفعالية، في بيئة صحراوية قاسية تعاني من شح الموارد المائية بشكل دائم. كانت فكرة المشروع بسيطة في جوهرها لكنها حيوية جدًا لمجتمعنا الذي يعتمد على المساعدات المائية. كنت ضمن الفريق الأساسي للمشروع، أعمل بجد على تطوير محتوى توعوي مبسط يناسب الأطفال، وأصمم رسومات وكُتيبات ملونة لكي تجذب انتباههم. كان التحدي كبيرًا، فالموارد كانت شحيحة جدًا، والوعي بالبيئة لم يكن أولوية قصوى في ظل الظروف المعيشية الصعبة التي كنا نعيشها. لكننا عملنا بجد واجتهاد، كنا نُقام ورشات عمل صغيرة في ساحات المراكز، نجمع زجاجات المياه الفارغة ونعيد استخدامها في زراعة نباتات صغيرة بسيطة، ونشرح بطرق مبسطة وممتعة كيف يمكن

للمخيم أن يكون أكثر استدامة بيئيًا، وأن نحافظ على كل قطرة ماء. كان نجاح المشروع محدودًا في بدايته من حيث الانتشار، لكن أثره في زرع الوعي البيئي في عقول الأطفال كان كبيرًا، وكأننا نزرع بذورًا ستنمو في المستقبل.

هذا النجاح البسيط في أكوافيتا، بالإضافة إلى تفوقي المستمر في المدرسة، بدأ يلفت الأنظار إليّ بشكل لافت. لم تعد نظرات الشفقة تلاحقني من الكبار أو الغرباء، بل تحولت إلى نظرات التقدير والإعجاب. كنت أُدعى للمشاركة في المزيد من ورشات العمل والندوات، وللحديث عن تجربتي في المدارس الأخرى داخل المخيم، وحتى في بعض اللقاءات الصغيرة خارج المخيم. كنت أرى أنني أتحول تدريجيًا من مجرد مستمع يستقبل المعلومات، إلى متحدث يلهم الآخرين، من متلقٍ للمساعدات إلى مانح للأمل والمعرفة. شعرت أن صوتي بدأ يرتفع، وأن قصتي بدأت تُسمع.

وفي نهاية العام الدراسي الذي شهد تفوقي الباهر في مادة العلوم والرياضيات بشكل خاص، جاءت اللحظة التي لم أكن أتوقعها على الإطلاق. خلال حفل تكريم المتفوقين في المخيم، الذي أقامته وزارة التربية والتعليم الأردنية بالتعاون مع إحدى المنظمات الدولية الكبرى، في قاعة زينت بالورود والبالونات، تم الإعلان عن اسمي ضمن الطلاب الأوائل على مستوى المخيم. صُعدت إلى المنصة، ويدي ترتعش قليلاً، وقلبي يدق بسرعة جنونية، لأتسلم **درع التميز من وزارة التربية والتعليم** .لم يكن مجرد درع معدني لامع، بل كان رمزًا لكل التعب والسهر والدموع التي سالت، رمزًا لأن الجهود لا تضيع سدى، وأن العمل الجاد يؤتي ثماره. كان هذا التكريم يعني لي الكثير، لأنه جاء من جهة رسمية، يؤكد أنني لست مجرد لاجئ مجهول الهوية، بل طالب مجتهد، وشخص له قيمة، ومواطن صالح يمكن أن يُسهم في بناء المستقبل. كانت لحظة فخر لي ولعائلتي التي كانت تجلس بين الحضور، ووجوههم تضيء بالفرحة،

وعيونهم تلمع بالدموع الصادقة. رأيت الفرحة في عيني أمي، تلك الفرحة التي كانت مختفية منذ سنوات، كأنها تعود لتضيء وجهها وتزيل عنه آثار التعب، وتنسيها مرارة الغربة ولو للحظة.

خلال هذه الفترة من النمو والتطور، تعلمت كيف أحوّل الظروف القاسية التي عشناها في المخيم إلى **"أشياء فخمة"**، كيف أجعل من التحديات فرصًا لا تقدر بثمن للبناء والابتكار. على سبيل المثال، نقص الموارد الذي كان يلفنا من كل جانب علمني الإبداع والابتكار، كيف أجد حلولًا بسيطة لمشاكل معقدة باستخدام أقل الإمكانيات المتاحة. ضيق المساحة في الكرفان علمني كيف أستغل كل زاوية فيه، وكيف أصنع عالمي الخاص من المعرفة والقراءة والبحث، عالمًا أستطيع أن أهرب إليه عندما تضيق بي الحياة. كلمة "لاجئ" نفسها، التي كانت تقيدني يومًا وتسرق مني طعم الحرية، أصبحت مصدر قوتي وإلهامي. أصبحت قصتي، قصتي كلاجئ

صمد وتحدى، هي التي تفتح لي الأبواب، وتمنحني منصة لأتحدث وألهم الآخرين، لأثبت أن اللاجئ ليس مجرد رقم، بل إنسان يحمل طموحات وقدرات لا تُحصى. لم تعد هذه الكلمة عارًا أُخبئه، بل صارت وسامًا أحمله بفخر، وشعارًا لقصة نجاح.

كان هذا الفصل من حياتي مليئًا بالنمو، بالتعلم، وبالتغيير الجذري. بناء الجسور لم يكن فقط مع الآخرين من حولي، مع الأصدقاء الجدد والمجتمع، بل مع ذاتي أيضًا. أصبحت أدرك أن القوة الحقيقية لا تكمن في الظروف المحيطة، بل في الداخل، في الإرادة التي لا تلين، وفي الإيمان بأن الغد يحمل دائمًا فرصة جديدة، حتى لو كانت قادمة من قلب مخيم يبدو وكأنه نهاية العالم. كان هذا الفصل هو الإعداد لمراحل قادمة، اختبارًا لقدرتي على الصمود والتكيف.

الفصل الثامن

تحدي الجائحة (كورونا)

لم يكن أحد ليتوقع أن تهديدًا غير مرئي، قادمًا من أقصى الأرض، سيُلقي بظلاله الثقيلة على عالمنا الصغير في المخيم. بينما كنت أُواصل رحلتي في الدراسة والتطوير، مستمتعًا بالنجاحات الصغيرة التي بدأت أقطفها، ومعتادًا على تحديات المخيم اليومية، ظهر وحش جديد. جاء الخبر أولًا كهمسات متباعدة عبر هواتفنا البسيطة التي بالكاد تلتقط الإشارة، ثم كعناوين عريضة على شاشات التلفاز في مراكز الإغاثة التي نرتادها، وأخيرًا كواقع قاسٍ طرق أبواب كرفاناتنا :**جائحة كورونا**، أو كما كان الكبار يسمونها "الوباء الذي لا يرحم."

كان عام ٢٠٢٠ عامًا غريبًا بكل المقاييس، عامًا يحمل معه ريحًا من التغيير لم نكن مستعدين لها. بدأت الإجراءات الاحترازية تُفرض شيئًا فشيئًا. في البداية، كانت مجرد تعليمات بالتباعد وارتداء الكمامات الواقية التي بالكاد نجدها، ثم سرعان ما تحولت إلى **إغلاقات شاملة** لم نتخيلها قط،

إغلاقات كبّلت حركة الحياة داخل المخيم. توقفت المدارس أبوابها، وأغلقت المراكز المجتمعية التي كانت المتنفس الوحيد لنا، وتضاءلت حركة الناس في الأزقة الترابية حتى كاد المخيم يتحول إلى مدينة أشباح. فجأة، عادت الحياة لتشبه الأيام الأولى لوصولنا إلى المخيم: صمت ثقيل يلف الأرجاء، قلق يلف الوجوه ويحفر عليها تجاعيد جديدة، وشعور بأن المجهول يطرق الأبواب من جديد، مجهول مختلف هذه المرة. لكن هذه المرة، المجهول لم يكن حربًا بين الجيوش تترك وراءها الدمار، بل حربًا مع فيروس صغير لا يُرى بالعين المجردة، فيروس كان يهدد بانتزاع أرواح أحبائنا.

كانت التحديات الجديدة تتراكم فوق أكتافنا كأحمال ثقيلة، كأننا نحمل جبالًا على ظهورنا. التعليم الذي بدأنا نعتاده ونشعر بأهميته، تحول إلى **تعليم عن بُعد**، وهذا كان شبه مستحيل في بيئة المخيم. كيف يمكن لطفل أن يتعلم عبر الإنترنت وهو لا يملك جهاز حاسوب أو حتى هاتفًا ذكيًا؟ كيف يمكننا

الوصول إلى الدروس والمنصات التعليمية بدون اتصال إنترنت ثابت وموثوق، والكهرباء تنقطع لساعات طويلة؟ كانت الأسر تعاني من شح الموارد، وشراء هاتف ذكي أو جهاز لوحي كان ضربًا من الرفاهية لا يمكن تخيله في ظل الظروف المعيشية الصعبة. كنت أرى اليأس يعود إلى عيون الأطفال الذين كانوا قد بدأوا يجدون بعض الأمل في المدرسة، يذكرني بيأسي القديم عندما تركت المدرسة أول مرة. كنت أرى الابتكارات التي بدأنا نصنعها تتوقف، والمبادرات التي أطلقناها تتعثر، وكأن الوباء جاء ليمحو كل أثر للأمل زرعناه بصعوبة.

بالنسبة لي، كان تأثير الجائحة أعمق بكثير من مجرد إغلاقات وتحديات خارجية. لقد أثرت على **نفسيتي وأحلامي** بشكل لم أتوقعه. بعد كل ما مررت به من صحوة ونهوض، شعرت وكأنني أعود إلى نقطة الصفر، أو ربما إلى ما هو أدهى. عدت إلى تلك الحالة من الانتكاس والاكتئاب التي

عرفتها في بدايات اللجوء. فقدت الاهتمام بكل شيء، بالدراسة التي كنت أحبها، بالمشاريع التي كنت أعمل عليها. شعرت بأن كل هذا الجهد كان بلا فائدة، وأننا محكومون باليأس في هذا المكان. كنت أستيقظ كل صباح وأنا أتساءل: لماذا أواصل الكفاح؟ ما الفائدة من التعلم والاجتهاد إذا كانت الحياة نفسها ستغلق في وجهي كل الأبواب؟

الخوف من المرض كان تحديًا آخر لا يُحتمل. المخيم بطبيعته مكان مكتظ، المساحات ضيقة، والتباعد الاجتماعي يكاد يكون مستحيلاً. كانت قصص الإصابات تنتشر بسرعة بين الكرفانات، والخوف من أن يصل الفيروس إلى عائلتي، إلى أمي وأبي اللذين كانا يعانيان من مشاكل صحية بسيطة، كان يقض مضجعي ويمنعني من النوم. كنت أرى سيارات الإسعاف القليلة تسرع داخل المخيم، تتبعها نظرات القلق، وكل مرة كنا نترقب: من يا ترى؟ من أصيب هذه المرة؟ كانت كل سعال أو عطسة في كرفان مجاور تثير القلق في قلوبنا، وتجعلنا نترقب الأسوأ.

في تلك الفترة، كدت أترك الدراسة تمامًا. شعرت أنني لا أملك الطاقة للمتابعة، وأن الأمل قد تبخر. كنت أرى المستقبل كجدار أسود لا يمكن اختراقه. لكن في أحلك لحظات اليأس، حينما شعرت بأنني على وشك الاستسلام التام، وأنني سأعود إلى تلك اليه التي عشتها سنوات، تدخلت رحمة الله بي. لم تكن تدخلًا ماديًا، بل كانت نورًا خفيًا يضيء لي طريقي. ربما كانت كلمة من أمي، أو نظرة من أبي، أو ذكرى لجملة قالها معلمي القديم، أو حتى دعاء سمعته من أحد الجيران. شعرت وكأن شيئًا ما يدفعني بقوة من الداخل. تذكرت كل ما مررت به، كل التحديات التي تجاوزتها، كل لحظة فشل تحولت إلى نجاح. تذكرت أنني لست مجرد لاجئ، بل حكاية صمود.

كانت تلك اللحظة هي نقطة التحول. في قلب اليأس، وجدت بصيص الأمل. أدركت أن الاستسلام الآن سيعني أن كل ما كافحت من أجله، كل ما

تعلمته، كل ما بنيته، سيذهب هباءً منثورًا. هذا التحدي العالمي كان اختبارًا آخر لإرادتي الصلبة، لمدى قدرتي على الصمود والتكيف. أصبحت الجائحة درسًا قاسياً في **التعلم والتكيف مع الظروف الصعبة** .تعلمت الصبر أكثر، تعلمت كيف أجد النور في أحلك الظروف، وكيف أُحافظ على بصيص الأمل حيًا مهما كانت العواصف. أدركت أن طبيعة "اللاجئ" التي عشتها لسنوات قد أعدتني نفسيًا لمواجهة الظروف غير المتوقعة، فقد كنت أعيش في "جائحة" خاصة بي لسنوات طويلة قبل أن يعرف العالم بأسره معنى الوباء. كنت أعيش حياة تتطلب التكيف المستمر، والمرونة المطلقة، والإيمان بأن الغد سيحمل دائمًا فرصة للنجاة. كنت قد تدربت على هذا النوع من الأزمات دون أن أدري، وأدركت أن هذه الميزة هي ما سيعيدني إلى طريق الصواب.

ودوري خلال الجائحة لم يكن فقط في النجاة من هذه الانتكاسة. فبمجرد أن استعدت قوتي، بدأت أرى في هذه الأزمة فرصة لتعميق مهاراتي التي اكتسبتها في التكنولوجيا. فمع إغلاق المدارس، أصبح التعليم عن بعد هو الخيار الوحيد، وهذا دفعني للبحث عن حلول إبداعية. قضيت ساعات طويلة في البحث عبر الإنترنت، في محاولة لفهم كيفية عمل المنصات التعليمية الرقمية. بدأت أساعد أصدقائي وجيراني في تصفح هذه المنصات، في حل المشاكل التقنية التي واجهوها، وفي البحث عن مصادر تعليمية مجانية عبر الإنترنت. لم يكن الأمر سهلاً، فالاتصال بالإنترنت كان ضعيفًا ومتقطعًا، والكهرباء كانت تنقطع لساعات طويلة، لكن الإصرار كان أكبر.

في أحد الأيام، لاحظت أن الكثير من الأطفال والشباب يقضون وقتهم في اللعب دون فائدة بسبب الإغلاق. فجاءتني فكرة. قمت بجمع مجموعة

صغيرة منهم، وبدأت أعلمهم مبادئ بسيطة في البرمجة باستخدام برامج مجانية متاحة عبر الإنترنت، حتى لو كانت ألعابًا تعليمية بسيطة. كنا نجلس في زاوية بعيدة عن أعين الرقابة، ونشرح لهم كيف يمكنهم بناء قصصهم الخاصة باستخدام الكود، وكيف يمكن للتكنولوجيا أن تكون أداة للإبداع لا مجرد ترفيه، وأنها قد تكون طوق النجاة. كانت هذه المبادرة الصغيرة تزرع فيهم شغفًا جديدًا، وتملأ وقتهم بشيء مفيد في ظل الركود العام. كانت سعادتي لا توصف عندما أرى عيونهم تلمع وهم ينجحون في كتابة أول سطر برمجي لهم، أو عندما يصممون لعبة صغيرة بأنفسهم.

الدروس التي تعلمتها من فترة كورونا كانت أكثر عمقًا من أي كتاب قرأته. علمتني أن الحياة مليئة بالمفاجآت غير المتوقعة، وأن الاستعداد النفسي للتكيف هو أهم سلاح يملكه الإنسان. علمتني قيمة العائلة والجيران، وكيف يمكن للتضامن البشري أن يتجاوز كل الصعاب. علمتني أن التكنولوجيا،

رغم كل قيودنا، يمكن أن تكون جسرًا يربطنا بالعالم الخارجي، وأداة للتعلم والنمو حتى في أحلك الظروف. وأهم من ذلك كله، علمتني أن طبيعة "اللاجئ" التي عشتها لسنوات قد أعدتني نفسيًا لمواجهة الظروف غير المتوقعة، فقد كنت أعيش في "جائحة" خاصة بي لسنوات طويلة قبل أن يعرف العالم بأسره معنى الوباء. كنت أعيش حياة تتطلب التكيف المستمر، والمرونة المطلقة، والإيمان بأن الغد سيحمل دائمًا فرصة للنجاة. كنت قد تدربت على هذا النوع من الأزمات دون أن أدري، وأدركت أن هذه الميزة هي ما سيعيدني إلى طريق الصواب والنهوض.

وهكذا، تجاوزت الجائحة. لم تكن سهلة، بل كانت مرحلة مليئة بالتحديات والخوف، لكنها أضافت طبقة جديدة من القوة والمرونة إلى شخصيتي. خرجت منها ليس فقط ناجيًا، بل أكثر إدراكًا لقوتي الداخلية، وأكثر إيمانًا بأن إرادة البقاء يمكن أن تنتصر على أي وباء، وعلى أي ظروف، مهما

بدت قاسية. لقد أدركت أن رحمة الله كانت تحيط بي، تقودني كلما انحرفت، وترجعني إلى مساري كلما تاهت خطاي.

الفصل التاسع

ثمار النجاح

بعد أن تجاوزت جائحة كورونا بكل تحدياتها، وبعد أن وجدت طريقي مجددًا بفضل رحمة الله التي أنقذتني من حافة الهاوية، شعرت وكأنني أقف على أرض أكثر صلابة. لم تكن الحياة سهلة، لكنني أصبحت أمتلك أدوات جديدة لمواجهة الصعاب: إرادة لا تلين، وعقل يرفض الاستسلام. السنوات التي مضت في المخيم، بكل ما حملته من قسوة ويأس، لم تذهب سدى. لقد كانت أرضًا خصبة زرعت فيها بذور الصمود، والآن حان وقت الحصاد، حان وقت قطف **أول ثمار النجاح** التي كانت حلماً بعيد المنال.

كان شعوري الأول عندما بدأت هذه الثمار تظهر، مزيجًا من الدهشة والامتنان. الدهشة لأنني لم أكن أتخيل أن أصل إلى هذه النقطة يومًا، والامتنان لأن الله لم يتركني أبدًا في تيهي. أتذكر جيدًا تلك اللحظة التي شعرت فيها بأنني أُخطو خطوة حقيقية نحو تحقيق ذاتي. بعد سنوات من

التطوع في المبادرات الصغيرة، وبعد أن أصبحت جزءًا فاعلًا في مجتمع المخيم، بدأت تظهر لي فرص حقيقية خارج حدود المبادرات التطوعية.

كانت البداية مع مركز تدريب مهني جديد افتتح في المخيم، يهدف إلى تأهيل الشباب لسوق العمل. تقدمت بطلب للانضمام إلى دورة متقدمة في صيانة الأجهزة الإلكترونية والشبكات، مستفيدًا من شغفي السابق بالتكنولوجيا الذي نما خلال فترة الجائحة. لم يكن الاختيار سهلاً، فقد كان هناك الكثير من المتقدمين، لكن خبرتي في مساعدة أهلي وجيراني خلال فترة الإغلاق، ومشاركتي في مشروع "العرباية الإلكترونية" (الروبوت البسيط) الذي صممته لمساعدة الوافدين الجدد، لفتت انتباه المدربين. تم قبولي، وشعرت حينها وكأن بابًا كبيرًا قد فُتح أمامي، باب لم أكن أجرؤ حتى على الحلم بوجوده.

كانت الدورة مكثفة وصعبة. كنا نتعلم عن الدوائر الكهربائية المعقدة، عن شبكات الاتصال، وكيفية إصلاح الأعطال في الأجهزة التي كانت تبدو لي كصناديق سوداء من قبل. قضيت ساعات طويلة أدرس وأتدرب عمليًا. كانت يدي تتعبان من التعامل مع الأدوات الصغيرة، وعقلي يتعب من استيعاب كمية المعلومات الهائلة، لكنني لم أُبالِ. كنت أرى في كل معلومة جديدة خطوة نحو مستقبلي الذي بدأت ألمس ملامحه. كانت عيون المدربين تتابعني باهتمام، يرون فيّ شغفًا وإصرارًا لم يعتادوا رؤيته.

وبعد أشهر من التدريب الشاق، تخرجت من الدورة بتفوق. لم أكتفِ بذلك، بل حصلت على **شهادة معتمدة** فتحت لي أبوابًا أوسع بكثير مما كنت أتخيل. كانت هذه الشهادة هي أول اعتراف رسمي بمهارة اكتسبتها بجهدي، ليست مجرد علامات مدرسية. لم تمر أيام قليلة بعد التخرج، حتى جاءتني فرصة عمل. كانت منظمة دولية تعمل في المخيم تبحث عن فني

صيانة لأجهزتها وشبكاتها الداخلية. تقدمت للوظيفة، ورغم أنني كنت الأصغر سنًا بين المتقدمين، إلا أنني كنت الأكثر شغفًا وحماسًا. أجريت المقابلة، وشرحت لهم كيف أنني تعلمت كل هذه المهارات في ظروف صعبة، وكيف أنني أؤمن بقدرتي على حل المشكلات.

لقد تم قبولي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أعمل فيها بوظيفة حقيقية. شعرت وكأنني أقفز قفزة عملاقة في حياتي. في نهاية الشهر الأول، عندما تسلمت **أول راتب** لي، لم أصدق ما أراه. كانت حزمة بسيطة من النقود، لكنها كانت تعني لي العالم كله. لم أعد أعتمد على المساعدات، لم أعد عبئًا على عائلتي. كان هذا الراتب هو دليل على استقلالي، على قدرتي على بناء شيء بيديّ وعقلي. احتضنت الراتب بقوة، ودموع ساخنة انزلقت على خدي. لم تكن دموع حزن، بل دموع فرح ممزوجة بالفخر. ركضت إلى أمي، ووضعت المال في يدها، وقلت لها: "هذا من تعبي يا أمي، هذا أول

راتب لي." رأيت عينيها تلمعان بالفرح، وابتسامة واسعة زينت وجهها المتعب، كانت أغلى من كل كنوز الدنيا.

هذا النجاح لم يكن نهاية المطاف، بل كان بداية لثورة من الفرص. سرعان ما بدأت أتلقى عروضًا وفرصًا للعمل على مشاريع أخرى داخل المخيم، وحتى بعض المشاريع الصغيرة عبر الإنترنت مع أفراد خارج المخيم. أصبحت مسؤولاً عن صيانة شبكة الكمبيوتر في أحد المراكز التعليمية، ثم قمت بتطوير نظام حجز إلكتروني لدورات تدريبية هناك. كل مشروع كان يضيف لي خبرة جديدة، ويوسع من شبكة علاقاتي. كنت أجمع بين دراستي الثانوية وبين العمل، منهكًا جسديًا، لكن روحي كانت تشتعل شغفًا. لم يعد الوقت يمر بلا هدف، بل كل دقيقة كانت محسوبة، وكل جهد كان له ثمن.

في هذه الفترة، بدأت أرى كيف أن قصتي أصبحت تلهم الآخرين. أتذكر لقاءً مؤثرًا جمعني بشاب في مثل سني، كان قد فقد الأمل في الدراسة والعمل. جاءني ذات يوم، عيناه تائهتان، وقال لي: "أنا أسمع عنك يا محمد. كيف فعلت ذلك؟ كيف استطعت أن تنهض من كل هذا؟" جلست معه لساعات، رويت له قصتي من البداية، عن اليأس، عن كلمة "لاجئ"، عن المعلم الذي غير حياتي، عن رحمة الله التي قادتني، عن كل خطوة من الكفاح. رأيت عيونه تلمع وهو يستمع، وابتسامة خجولة بدأت ترتسم على وجهه. في نهاية حديثنا، قال لي: "لقد أعطيتني الأمل يا محمد. سأبدأ من جديد." تلك اللحظة كانت تعني لي أكثر من أي راتب أو شهادة. لقد أدركت أن نجاحي لم يكن لي وحدي، بل كان رسالة أمل يمكن أن تضيء دروب الآخرين.

وهكذا، بدأت قصة نجاحي تتشكل. لم تكن قصة بطل خارق، بل قصة شاب عادي، لاجئ، وجد طريقه في قلب الصعاب. كنت قد تجاوزت مرحلة "البحث عن معنى اللجوء" إلى مرحلة "صناعة المعنى من اللجوء". أصبحت أؤمن بأن كل تحدٍ هو فرصة، وكل ألم هو قوة دافعة. أصبحت أدرك أن القصة الحقيقية لا تبدأ بالنجاح، بل تبدأ بالإرادة التي ترفض الاستسلام، وبالإيمان بأن الأمل يمكن أن يزهر حتى في أحلك الظروف.

الفصل العاشر

عاد الوطن

كانت حياتي قد بدأت تأخذ مسارًا مختلفًا، مسارًا رسمته بنفسي بيدي وعقلي، بعيدًا عن تلك الأيام الأولى من الضياع والتيه. تفوقي في الدراسة، ومشاركتي في المبادرات، ونجاحي في أول وظيفة لي، كل ذلك كان يمنحني شعورًا بأنني أُعيد بناء ذاتي خطوة بخطوة. لقد كنت قد وصلت إلى ما يسمونه **"الصف الثاني عشر" أو "التوجيهي"** في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو العام الذي يحمل في طياته مستقبل كل طالب. كان هذا العام بمثابة بوابة عبور، جسر ضيق لا بد من اجتيازه بنجاح للانتقال إلى مرحلة جديدة تمامًا من الحياة. كانت الضغوط هائلة، فكل امتحان كان يبدو كاختبار مصيري، وكل علامة كخطوة نحو المجهول. الليالي الطويلة التي قضيتها أدرس تحت ضوء المصباح الخافت في الكرفان، بينما يغط المخيم في صمت عميق، كانت هي رفيقة دربي. كان عقلي لا يهدأ، يُراجع المسائل، ويُحلل المعادلات، ويُطارد المعرفة، بينما قلبي كان يحمل ثقل السنوات الماضية، وأحلام المستقبل الذي كنت أسعى إليه بكل جوارحي.

في تلك الفترة، كنت قد وصلت إلى درجة من التأقلم مع واقع المخيم. لم يعد سجنًا، بل صار عالمًا له قواعده الخاصة، وناسه الذين باتوا أهلاً وعشيرة. كنت أشارك في حياة المخيم اليومية، أرى الوجوه نفسها، أسمع القصص ذاتها، وأشعر بنبضه. كان المخيم قد أصبح، بطريقة ما، جزءًا مني، مكانًا شكلني وعلّمني دروسًا لم تكن لتُعلّم في أي جامعة. كنت قد بنيت فيه شبكة علاقات قوية، وأصبحت لي مساحة للعمل والتأثير. هذا التأقلم لم يكن استسلامًا، بل كان نتاجًا لإرادة البقاء، وقناعة بأن الحياة يجب أن تستمر مهما كانت الظروف، وأن الأمل يكمن في البناء مهما كان المكان.

لكن في أعماقي، وفي أوقات الصمت والهدوء النادرة التي كنت أجدها بين دروس التوجيهي الشاقة، كان هناك **شوق خفي ينمو، حنين صامت إلى الوطن الأم** .كنت أُحاول ألا أُفكر فيه كثيرًا، أُركز على حاضري ومستقبلي

هنا. لكنه كان كالنار تحت الرماد، يشتعل بين الحين والآخر، خاصة عندما أرى طفلًا صغيرًا يرسم خريطة لسوريا، أو عندما أسمع أغنية شعبية تتحدث عن الشام وياسمينها. كانت تلك اللحظات تذكرني بجذوري، بأرضي التي لم أعد أذكر تفاصيلها بوضوح، لكن صورتها ظلت محفورة في ذاكرتي الطفولية. كان الحنين يزيد من ثقل مسؤولية التوجيهي، فنجاحي فيه كان سيحدد ليس مستقبلي فحسب، بل ربما مستقبلي في الوطن الذي أحلم بالعودة إليه.

ثم جاء الخبر، في تاريخ **8/12/2025**، بينما كنت منهمكًا في مراجعة دروسي لامتحان الفيزياء المعقد، وكان عقلي يصارع المعادلات، وبينما كان المخيم يستعد لدخول ليل هادئ كأي ليل آخر. لم يكن الخبر قادمًا من نشرة إخبارية رسمية على التلفاز، بل جاء كالصاعقة، كشائعة سريعة الانتشار تحولت إلى حقيقة في دقائق معدودة. سمعت صوت جيراننا، الذين

لم أسمعهم يصرخون بهذه الفرحة العارمة منذ سنوات طويلة، "الشام نبضت بالحياة من جديد!"، "سوريا تحررت!"، "الظلم قد ولّى!". كانت الكلمات تتناثر في الهواء، تتسابق إلى أذنيّ، تضرب قلبي بعنف، وتُربك كل ما كنت أُفكر فيه من معادلات فيزيائية.

خرجت من كرفاني مهرولاً، أبحث عن مصدر هذا الصخب الذي أيقظ المخيم كله، عن حقيقة ما أسمع، بينما كتاب الفيزياء ما زال مفتوحًا على طاولتي. رأيت المخيم كله قد انتفض، وكأنه خرج من سبات عميق. الناس يخرجون من كرفاناتهم، يتبادلون العناق والتهليل، تتجمع العائلات في الأزقة، وتتداخل أصوات البكاء من الفرح مع أصوات الضحكات العالية. عيونهم تلمع بالدموع التي تحولت من حزن إلى فرح، شفاههم ترتسم عليها ابتسامات لم أرها منذ زمن طويل. بدأت الزغاريد النسائية تعلو في السماء، وتُطلق الألعاب النارية البسيطة في سماء المخيم المظلمة، مُحدثة انفجارات

صغيرة من الفرح والبهجة. رأيت أطفالًا يركضون في الأزقة، يصرخون بكلمة "سوريا" وكأنها أُعيدت إليهم كهدية ثمينة الآن. كانوا يوزعون الحلوى القليلة التي يملكونها، يتسابقون لتهنئة بعضهم البعض، وكأن معجزة قد حدثت للتو، معجزة كانت تنتظرها القلوب منذ سنوات طويلة.

كل هذا جميل... بل أكثر من جميل، كان معجزة حقيقية. لكن قلبي... لم يفرح كما توقعت أن يفرح في هذه اللحظة التاريخية، لم يرقص من السعادة كما فعل الآخرون من حولي. كنت في حالة **ذهول تام** .خنقتني العبرة، شعرت وكأنني وُضعت فجأة بين نارين تلتهمان روحي :**نارُ الحنين الجارف إلى أرض لم أعد أذكر تفاصيلها بشكل واضح، أرض أحمل فيها جذوري وتاريخي، ونارُ الانتماء العميق إلى هذا المكان الذي احتضنني كل هذه السنوات الطويلة في غربتي، والذي أُحاول أن أُبني فيه مستقبلي من خلال دراسة التوجيهي.**

كيف لي أن أرحل عن مخيم احتضنني بكل ما فيه من قسوة، لكنه علمني الصمود؟ عن أرض الأردن التي رغم غربتي فيها، علّمتني معنى الوطن الحقيقي، معنى الكرامة والإنسانية في أشد أيامي ضعفًا؟ كيف لي أن أُغادر أرضًا صنعتني من الصفر، أرضًا كانت شاهدة على كل خطوة من خطواتي نحو النضج، علّمتني معنى الكرامة في كل وجبةٍ بسيطة تناولتها على ترابها، في كل صفٍ دراسي ضيق جلست فيه، في كل مركزٍ تعليمي حضن حلمي الصغير وكبّره حتى صار مشروعًا؟ لقد كانت الأردن هي الأم البديلة، هي السند الذي احتضننا عندما تخلى عنا العالم، عندما أدار لنا ظهره.

أم أعود إلى الأرض التي أنجبتني، إلى جذوري الضاربة في أعماق التاريخ، إلى الشام التي لا تموت، التي كانت وما زالت تجري في دمي كشريان الحياة؟ كيف يمكن لقلب واحد أن ينقسم بين حبين، بين وطنين، في

لحظة واحدة، خاصة وأنا في بداية أهم مرحلة دراسية في حياتي؟ كنت أتمزق داخليًا، كشجرة يُجذب كل جزء منها في اتجاه معاكس، وتخشى أن تقتلع من جذورها. كنت أرى السعادة الغامرة في عيون أمي وأبي وهما يتحدثان عن العودة، عن إعادة بناء منزلنا القديم، لكنني كنت أرى أيضًا سنوات طويلة من التعب والألم التي مرت بنا هنا، في هذا المخيم. شعرت بأن جزءًا مني سيبقى هنا، وأن جزءًا آخر سيعود، وكأنني لن أكون كاملاً أبدًا، وكأن جزءًا مني سيعيش في الماضي وآخر في المستقبل.

لم أكن أستطيع النوم تلك الليلة. جلست وحدي، في زاوية كرفاني الذي كان يشهد على كل لحظة من حياتي، بينما أصوات الفرح من الخارج لم تتوقف. وبدأت أكتب. كنت أكتب لأفرغ ما في صدري، لأسمع صوت قلبي الحقيقي الذي كان يضطرب بشدة. لم أكن أكتب لأحسم القرار في تلك اللحظة، فالمشاعر كانت أكبر من أي قرار، بل لأفهم مشاعري المتداخلة،

لأُرتّب الفوضى التي اجتاحت روحي. كتبت عن سوريا التي أحبها حبًا غامضًا، وعن الأردن التي احتضنتني حبًا صادقًا. كتبت عن المخيم الذي شكلني وصقلني، وعن أصدقائي الذين كانوا سندي.

فأدركت شيئًا عميقًا، شيئًا تجاوز كل الحدود والجنسيات :**لا تعارض بين الاثنين. لا نكران في الحب. أستطيع أن أحبّ بلدًا احتضنني في أشد أيامي بؤسًا، وأشتاق إلى بلد أنجبني ورويت ترابه بطفولتي .**الحب لا يتجزأ، والانتماء لا ينقسم. كلاهما جزء مني، وكلاهما سيبقى في دمي، يُشكل هويتي الأبدية.

قررت حينها: سأكمل عامي الدراسي في التوجيهي هنا، وسأنجح فيه بإذن الله. وبعد أن أقطف ثمار تعبي، سأعود. ليس هروبًا من واقع بنيته هنا، بل وفاءً لجذور لا تُنسى. سأعود لأزرع ورد الياسمين في تراب بلدي الأم، وأحمل في قلبي كل بذور الخير والمعرفة والابتكار التي زرعتها في

المخيم، لأزرعها هناك أيضًا. لن أنسى الأردن، هذا البلد العظيم الذي ربّاني حين تخلّى عني كل شيء، بلدًا قدّمني للعالم، وأنا خلف أسواره التي كانت تحيط بي. سأعود إلى سوريا، لكنني سأحمل الأردن في قلبي، كأمٍ ثانية لا تُنسى فضلها ولا جميلها.

وهكذا، أدركت أن تحرير الوطن لم يكن نهاية المطاف، بل كان بداية فصل جديد من المسؤولية. مسؤولية بناء ما تهدّم، ومسؤولية الحفاظ على الأمل الذي كبر في صدورنا. لقد كانت هذه اللحظة، لحظة تحرير سوريا، بمثابة تحرير لي أنا أيضًا، تحرير من صراع الهوية، من قيد السؤال "من أين أنت؟". أصبحت أعلم أن هويتي لم تعد مُجرد كلمة "لاجئ"، بل هي مزيج من الصمود والانتماء، من جذور عميقة وأجنحة تحلق في فضاء العالم.

الفصل الحادي عشر

عاد الوطن

بعد الصدمة الكبرى لخبر تحرير الوطن، والتحدي الهائل الذي عشته في بداية عام التوجيهي، وجدت نفسي أقف على عتبة مرحلة جديدة، مرحلة تختلط فيها المشاعر وتتصارع فيها الرغبات. لقد أدركت أن العودة إلى الوطن، وإن كانت حلمًا طال انتظاره، لن تكون فورية أو سهلة. هناك عام دراسي كامل يجب أن أُنجزه، ومستقبل يجب أن أخطط له بعناية هنا، في المكان الذي احتضنني كل هذه السنوات. لم تعد رؤيتي مقتصرة على مجرد النجاة، بل امتدت لتشمل بناء مستقبل مشرق، أينما كنت.

أصبحت أيامي بعد خبر التحرير تحمل نكهة مختلفة. كان الفرح يملأ قلوب الناس في المخيم، تتزايد أحاديث العودة، وتُنسج أحلام المستقبل على ألسنتهم. لكنني، ورغم مشاركتي لهم هذه الفرحة، كنت أشعر بمسؤولية مضاعفة. كان عليّ أن أُركّز على دراستي بشكل لم يسبق له مثيل. فنجاحي في التوجيهي لم يعد مجرد نجاح شخصي، بل صار بمثابة مفتاح

سيفتح لي أبواب الجامعات، وبالتالي سيحدد نوع المساهمة التي يمكنني أن أقدمها لوطني الأم عندما يحين وقت العودة، أو للمجتمع الذي أعيش فيه الآن. كنت أرى في كل كتاب أدرسه، وفي كل مسألة أحلها، خطوة نحو بناء تلك الجسور بين الحاضر والمستقبل.

في الليالي الهادئة، بعد أن ينتهي ضجيج المخيم، وبعد أن أُنهي مراجعة دروسي الشاقة، كنت أجلس وحيدًا في كرفاني، وضوء المصباح الخافت يرتسم على وجهي. لم أعد أُفكر في ماضيّ الأليم بقدر ما كنت أُفكر في **أحلامي وتخطيطاتي بعد التخرج** .كان حلم الدراسة الجامعية هو الأكبر والأكثر وضوحًا. كنت أُتابع كل الأخبار المتعلقة بالجامعات في الأردن، أبحث عن التخصصات التي تتناسب مع شغفي المتنامي بالتكنولوجيا. لم تكن مجرد أحلام وردية، بل كانت خططًا طموحة بدأت أُنسج خيوطها بعناية.

كان المجال التكنولوجي قد أسر قلبي وعقلي منذ فترة. شغفي بالبرمجة، بقدرتي على بناء عوالم جديدة من الكود، وبقدرة التكنولوجيا على حل المشكلات الكبيرة والصغيرة، كل ذلك كان يدفعني نحو هذا المسار. كنت أرى كيف أن التكنولوجيا يمكن أن تُحدث فارقًا في حياة الناس، تمامًا كما فعلت "عربايتي الإلكترونية" البسيطة في المخيم. لذلك، كانت أولى تخطيطاتي بعد التخرج هي دراسة **هندسة البرمجيات أو علوم الحاسوب** . كنت أتصور نفسي في قاعات الجامعات، أتعلم من أساتذة كبار، أُشارك في مشاريع متقدمة، وأُساهم في تطوير حلول تكنولوجية مبتكرة. لم أكن أُفكر في هذه التخصصات كمهنة فحسب، بل كرسالة، كطريقة لأُسهم في بناء المستقبل، أينما كنت.

لم تقتصر أحلامي على الدراسة الأكاديمية فقط. فبعد تجربتي في مشروع "أكوافيتا" و"مكتبة الأمل الصغيرة"، ومساعدتي للشباب في تحدي

الجائحة، أدركت أنني أرغب في أن أكون أكثر من مجرد مهندس أو مبرمج. كنت أخطط لإنشاء **منصة تعليمية مجانية عبر الإنترنت** تستهدف الأطفال والشباب اللاجئين، أو الأطفال في المناطق النائية. منصة تُقدم لهم دروسًا مبسطة في البرمجة، في أساسيات الحاسوب، في اللغات، بل وحتى في مهارات الحياة الأساسية التي لم تُدرج في المناهج الرسمية. كنت أرى فيها وسيلة لتجاوز حواجز المكان والزمان، ولنقل المعرفة إلى كل من يحتاجها، وخاصة أولئك الذين يعيشون ظروفًا مشابهة لظروفي. كانت رؤيتي أن تكون هذه المنصة هي جسر عبور لهم نحو فرص أفضل، وأن تزرع فيهم الأمل والإيمان بقدراتهم.

بالإضافة إلى ذلك، كنت أخطط لتطوير **مشروع العربابة الإلكترونية** (الروبوت الذي يساعد الوافدين في المخيم) ليصبح أكثر تطورًا وشمولية. كنت أتخيله روبوتًا ذكيًا، لا يكتفي بالإرشاد، بل يمكنه أن يُقدم معلومات

صحية، أو يساعد في توزيع المساعدات بشكل منظم، أو حتى يُقدم بعض الألعاب الترفيهية للأطفال. كانت هذه الأفكار تملأ رأسي، كل فكرة تثير شغفًا جديدًا، وكل تحدٍ يجعلني أبحث عن حلول إبداعية. كنت أُدوّن كل هذه الأفكار في دفتري الصغير، وأرسم مخططات تخيلية، وأحاول أن أتصور كيف ستبدو هذه المشاريع على أرض الواقع.

لكن بين هذه الأحلام والتخطيطات، كان هناك تحدٍ كبير يكمن في كيفية تحقيقها. كانت الموارد محدودة، والفرص تحتاج إلى سعي وجهد مضاعفين. كنت أُدرك أن الطريق لن يكون مفروشًا بالورود، وأنني سأواجه عقبات كثيرة. لكن الإيمان بقدرتي، وبكلمات معلمي الذي أعاد لي ذاتي، وبفضل الله ورحمته التي قادتني في أحلك الظروف، كان هو وقودي. كنت أُؤمن بأن لكل مجتهد نصيبًا، وأن الأبواب ستُفتح لمن يسعى بجد.

كانت هذه الفترة من حياتي مليئة بالاستعداد. استعداد نفسي ومعرفي للمرحلة القادمة. كنت أُحاول أن أُنمّي مهاراتي في كل الجوانب: القراءة السريعة، البحث الفعال، حل المشكلات المعقدة. كنت أرى أن كل يوم يمر هو فرصة لتعلم شيء جديد، لتقوية نفسي، للاقتراب خطوة من تحقيق أحلامي. لم يعد المستقبل مجهولًا يُخيفني، بل أصبح لوحة بيضاء أستطيع أن أرسم عليها أحلامي بيديّ، وأن أُلوّنها بألوان الأمل والإصرار.

وهكذا، عشت عام التوجيهي ليس فقط كطالب يسعى للنجاح في الامتحانات، بل كمهندس لأحلامي، وكشاب يخطط لمستقبله في عالم يتغير بسرعة، عالم يفتح أبوابه للمبتكرين وأصحاب الإرادة القوية. كنت أُركّز على إتقان ما بين يدي، وأُخطط لما سيأتي، وأُؤمن بأن القادم أفضل، وأن الأيام تخبئ لي الكثير من الفرص لأكون جزءًا من التغيير الذي أحلم به.

الفصل الثاني عشر

شعور السعادة والفخر بالانتماء

بعد كل تلك السنوات التي قضيتها أسأل نفسي "من أنا؟" و"أين مكاني؟"، وبعد رحلة شاقة مليئة باليأس والصحوة، التيه والنهوض، وصلت إلى نقطة شعرت فيها أنني أجد الإجابات. لم تعد الإجابات مجرد كلمات خافتة، بل كانت مشاعر تتدفق في عروقي، تدفئ روحي :**شعور عميق بالسعادة، وفخر لا يوصف بانتمائي** .لم يكن هذا الانتماء محصورًا في مكان واحد، بل امتد ليشمل قصة كفاحي، ونجاحاتي الصغيرة، والأشخاص الذين آمنوا بي.

كانت هذه المشاعر تتجلى في تفاصيل يومي. في الصباح، عندما كنت أستيقظ لأذهب إلى المدرسة أو المركز، لم أعد أشعر بأنني ذاهب إلى واجب مفروض، بل إلى مكان ينتمي لي وأنا أنتمي إليه. خطواتي كانت أسرع، ابتسامتي كانت أوسع، وشعوري بالهدف كان أوضح. كنت أُصافح أصدقائي وزملائي، وأرى في عيونهم تقديرًا واحترامًا لم أكن أراه في

السابق. لقد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من نسيج المخيم، خيطًا قويًا في لوحة فنية معقدة رسمتها الظروف، ولكن لونتها أنا بالأمل والإصرار.

أتذكر جيدًا تلك اللحظات التي كانت تملأ قلبي بالفخر. في إحدى المرات، كنت أُقدم محاضرة في أحد المراكز التعليمية بالمخيم عن أهمية التكنولوجيا في بناء المستقبل. كان الحضور من مختلف الأعمار، أطفال وشباب وحتى كبار في السن. كنت أتحدث عن رحلتي، عن كيف بدأت من لا شيء، عن "العرباية الإلكترونية" التي صممتها، وعن أحلامي الكبيرة لمساعدة مجتمعي. رأيت العيون تلمع، والوجوه تبتسم، وشعرت أن كلماتي تلامس قلوبهم. بعد انتهاء المحاضرة، جاءتني امرأة عجوز، وجهها محفور بتجاعيد الزمن، لكن عينيها كانتا تلمعان بالأمل. أمسكت بيديّ وقالت لي بصوت متهدج: "يا بني، أنت فخرنا. أنت أملنا في هذا المخيم. لا تيأس أبدًا." كانت كلماتها تزن الذهب، كانت تعني لي أكثر من أي جائزة أو

تكريم. في تلك اللحظة، شعرت بفخر عميق، ليس بنفسي كفرد، بل بنفسي كجزء من هذا المجتمع الصامد، كصدى لأحلامهم.

لم يكن هذا الفخر مقتصرًا على الإنجازات الكبيرة. بل كان يتسلل إلى قلبي حتى في أبسط الأشياء. عندما كنت أرى طفلًا يستخدم "العربية الإلكترونية" التي صممتها ليجد طريقه في المخيم بسهولة، أو عندما أرى شابًا يفتح كتابًا من "مكتبة الأمل الصغيرة" التي ساعدت في تأسيسها، كنت أشعر بسعادة غامرة. كانت هذه اللحظات الصغيرة هي التي تُعيد لي الإيمان بأن كل جهد أبذله له قيمة ومعنى. كنت أدرك أن انتمائي لم يعد مقتصرًا على قريتي التي تركتها خلفي، ولا على أوراق هويتي، بل على هذا الأثر الذي أتركه في حياة الآخرين، على هذا التغيير الذي أحدثه في عالمي الصغير.

الفخر بالانتماء لم يكن يتعلق فقط بالمخيم أو بالمشاريع التي أقمتها. بل امتد ليشمل **انتمائي لهويتي كلاجئ، كشخص صمد في وجه الظروف القاسية** .

كلمة "لاجئ" التي كانت تُمثل قيدًا وسجنًا لي في السابق، تحولت الآن إلى وسام شرف أحمله بفخر. أصبحت قصتي، قصة اللاجئ الذي حلم ونهض، هي التي تفتح لي الأبواب، وتمنحني منصة لأتحدث وألهم الآخرين. في كل مؤتمر أشارك فيه، وفي كل ندوة أُلقي فيها كلمة، كنت أُقدم نفسي بكل وضوح: "أنا محمد، لاجئ من سوريا، أعيش في مخيم الأزرق بالأردن." كنت أرى نظرات الدهشة في عيون البعض، لكنني كنت أرى أيضًا نظرات الاحترام والتقدير. كنت أؤمن بأن هذه الكلمة، "لاجئ"، لا تُعرّف ضعفي، بل تُعرّف قوتي، تُعرّف قدرتي على تجاوز المستحيل.

كان شعوري بالسعادة ينبع أيضًا من رؤيتي للتغيير الذي أحدثه في حياة من حولي. عندما كنت أرى الطلاب الذين أساعدهم في دروسهم يحققون

علامات جيدة، أو عندما أرى الشباب الذين دربتهم على البرمجة يجدون فرص عمل بسيطة، كنت أشعر بأنني جزء من قصة نجاح أكبر، قصة مجتمع ينهض رغم كل شيء. كانت هذه السعادة أعمق من أي سعادة شخصية، لأنها كانت مرتبطة بسعادة الآخرين.

وفي خضم هذا الفخر والانتماء، لم أنسَ أبدًا الأردن. هذا البلد الذي احتضنني، الذي منحني فرصة ثانية للحياة والتعليم والتطور. كنت أشعر بانتماء عميق للأردن، كأنه وطني الثاني. لم أكن أرى نفسي ضيفًا فيه، بل جزءًا من نسيجه. كنت أُقدر كل قطرة ماء، كل رغيف خبز، كل فرصة تعليمية قُدمت لي هنا. كنت أؤمن بأن رد الجميل لا يكون بالكلمات فحسب، بل بالعمل والإسهام في بناء هذا الوطن الذي كان لي سندًا في غربتي.

كانت هذه الفترة من حياتي مليئة بالتصالح مع الذات، مع الماضي، ومع الواقع. تصالحت مع حقيقة أنني لاجئ، وأن هذه الحقيقة لا تُقلل من قيمتي.

تصالحت مع فكرة أن الوطن يمكن أن يكون أكثر من مجرد بقعة جغرافية، يمكن أن يكون شعورًا بالانتماء إلى قصة، إلى مجتمع، إلى قضية.

أصبحت هويتي أكثر ثراءً، أكثر تعقيدًا، وأكثر قوة. لم أعد أبحث عن إجابات، بل أصبحت أنا الإجابة، أصبحت أنا القصة.

هذا الشعور بالسعادة والفخر بالانتماء لم يأتِ بين عشية وضحاها، بل كان نتيجة لسنوات من الكفاح، من البحث، من السقوط والنهوض. كان تتويجًا لرحلة طويلة، رحلة أدركت فيها أن الإنسان لا يُعرّفه مكانه، بل تُعرّفه إرادته، وأحلامه، والأثر الذي يتركه في هذا العالم. لقد أصبحت فخوراً بكل جزء من هذه الرحلة، بكل جرح وبكل انتصار.

الفصل الثالث عشر

شوق الأردن

مع مرور الأيام، وتراكم الذكريات، وبعد كل النجاحات التي حققتها هنا، وبعد أن تصالحت مع حقيقة كوني "لاجئاً" أعيش في هذا المكان، بدأ شعور جديد ينمو في أعماقي. لم يكن مجرد تأقلم سلبي، بل كان **شوقاً حقيقياً، وحنيناً دافئاً إلى الأردن، وإلى مخيمي الذي أعددته وطني** .وطنٌ بناه الصمود، وسقته الدموع، وشكلته الأيدي التي لم تستسلم. هذا الشوق لم يكن بديلاً عن حبي لسوريا، بل كان إضافة إليه، طبقة جديدة من الانتماء تُضاف إلى روحي التي أصبحت متعددة الأوطان.

كنت أُحاول أن أُفسر هذا الشعور لنفسي. كيف يمكنني أن أشتاق إلى مكان كان يوماً ما سجنًا لي؟ كيف يمكن أن تُصبح الكرفانات المتراصة، والأزقة الترابية التي تحمل رائحة الغبار صيفاً والطين شتاءً، جزءاً لا يتجزأ من هويتي؟ الإجابة كانت تكمن في كل تفصيل صغير وكبير عشته هنا. في صوت الريح وهي تضرب الكرفانات ليلاً، وكأنها تُغني لي أغنية هادئة.

في رائحة الشاي الذي كانت تُعده أمي في الصباح، وفي ضحكات الأطفال التي كانت تملأ الأزقة بعد المدرسة. في وجوه الجيران التي أصبحت مألوفة كوجوه أفراد عائلتي، نتبادل الابتسامات والهموم والأفراح. هذا المكان، بكل ما فيه من قسوة، كان هو الشاهد على نموي، على صحوتي، على انتصاراتي الصغيرة.

أتذكر جيداً الليالي التي كنت أمضيها في التحديق من نافذة كرفاني الصغيرة، أراقب سماء الأردن الصافية، النجوم اللامعة التي كانت تبدو أقرب وأوضح هنا منها في قريتي القديمة. كنت أُفكر في المرات الأولى التي وصلت فيها إلى المخيم، وكيف كنت أشعر بالضياع والوحدة. الآن، تغير كل شيء. أصبحت أرى في هذا المكان حكاية، حكايتي. أصبحت أرى في الأردن ليس مجرد بلد مستضيف، بل **أُمّاً ثانية** احتضنتني في

أحلك الظروف، وفتحت لي أبوابها رغم كل الصعاب التي كانت تواجهها هي نفسها.

الشوق إلى الأردن لم يكن مجرد عاطفة، بل كان إدراكًا للفضل. كنت أتذكر كيف قدمت لي هذه الأرض فرصة التعليم عندما كانت كل الأبواب موصده. كيف وفرت لي المراكز التعليمية في المخيم مساحة لأتعلم وأنمو. كيف أتاحت لي الفرصة لأبدأ مشروعي الأول، "العربابة الإلكترونية"، وكيف دعمتني المنظمات والجهات الرسمية في مسيرتي. كل هذه التفاصيل، كل هذه الفرص، كانت قد نُسجت في نسيج حياتي هنا. كنت أؤمن بأن الأردن لم تمنحني مأوىً فقط، بل منحتني فرصة لأُعيد تعريف ذاتي، لأُصبح إنسانًا له قيمة، لا مجرد رقم في إحصائيات اللجوء.

لم يكن الأمر مقتصرًا على الدعم الرسمي أو المادي. بل امتد ليشمل **دفء العلاقات الإنسانية** .أصدقائي الذين كوّنتهم هنا، "علي" و"فاطمة" وغيرهم،

باتوا جزءًا لا يتجزأ من روحي. ضحكاتنا المشتركة، أحلامنا المتشابكة، لحظات اليأس التي تجاوزناها معًا، كل هذه الروابط كانت أقوى من أي حدود جغرافية. كنا نعيش معًا، نحلم معًا، ونبني معًا. كانوا هم المخيم بالنسبة لي، كانوا هم الوطن الذي اخترته قلبي. كنا نتبادل الطعام، نتقاسم الأفكار، ونساند بعضنا البعض في الشدائد، تلك العلاقات كانت أغلى من الذهب، وكان الشوق لهم شعورًا لا يوصف.

وفي خضم التوجيهي، كانت هذه المشاعر تتداخل بشكل معقد. كنت أُراجع دروسي، وأنا أُفكر في مستقبل مشرق قد يكون هنا في الأردن، أو هناك في سوريا. ولكن في كل مرة، كنت أجد نفسي أُفكر في كيف يمكنني أن أُساهم في هذا البلد الذي احتضنني، كيف يمكنني أن أُرد الجميل. لم يكن مجرد واجب، بل كان رغبة عميقة نابعة من القلب. كنت أرى طلاباً

أردنيين في الجامعات، وأحلم بأن أكون مثلهم، أدرس وأُسهم في بناء هذا الوطن الذي كان لي سندًا في غربتي.

المخيم نفسه، بكل تفاصيله، أصبح له مكانة خاصة في قلبي. كانت الأزقة التي كنت أركض فيها طفلًا، ثم شابًا يحمل أحلامًا، هي الشاهد الصامت على رحلتي. الكرفانات التي كانت تبدو لي كصناديق باردة، تحولت إلى بيوت تحمل قصصًا، بيوت لأناس صمدوا، تحدوا، ونهضوا. كانت كل زاوية في المخيم تُذكرني بلحظة، بدرس، بإنجاز. كنت أُشاهد الأطفال الصغار وهم يلعبون، وأرى فيهم نفسي قبل سنوات قليلة، وأتمنى لهم مستقبلاً أفضل، وأُدرك أن مهمتي هي أن أُضيء لهم الطريق، وأن أُثبت لهم أن المخيم يمكن أن يكون نقطة انطلاق لا نقطة نهاية.

هذا الشوق العميق للأردن والمخيم لم يكن يعني نسيانًا لسوريا، لوطني الأصلي. بل كان إدراكًا لأن الحب يمكن أن يتسع ليشمل أكثر من مكان

واحد. أدركت أن هويتي أصبحت أكثر تعقيدًا، أكثر غنىً. أنا لاجئ سوري، نعم، لكنني أيضًا ابن للأردن، ابن للمخيم، ابن لقصة صمود تتجاوز الحدود. هذا الفخر بالانتماء المزدوج، هذا الشوق المتداخل، كان يمنحني قوة فريدة. كنت أُدرك أنني أحمل في داخلي تراثين، وثقافتين، وتجربتين، وهذا ما جعلني الشخص الذي أنا عليه اليوم.

كانت هذه المشاعر هي التي تُغذي روحي وتدفعني للمضي قدمًا، لأُكمل دراستي بتفوق، لأُحقق أحلامي، لأُصبح صوتًا لكل من مرّ بنفس تجربتي. فالشوق ليس مجرد حنين للماضي، بل هو دافع للمستقبل، دافع لبناء عالم أفضل، حيث لا يُجبر أحد على أن يختار بين وطنين، وحيث يكون الانتماء إحساسًا بالحب والتقدير لكل أرض احتضنت روح الإنسان. لقد كان هذا الشوق هو دليلي في طريق العودة إلى ذاتي، وتقديري للمكان الذي ساعدني على اكتشافها.

الفصل الرابع عشر

الهدف

لم تكن رحلتي في الحياة مجرد قصة شخصية من يأس ونجاح، من ضياع وصحوة. بل كانت، مع مرور الأيام وتراكم الخبرات، تتحول إلى **رسالة أعمق، إلى حلم أكبر من أن يحتويه جسدي الصغير أو حدود المخيم الواسعة** .أصبحت أرى في كل خطوة تقدمت بها، وفي كل نجاح حققته، ليس مجرد إنجاز فردي، بل وقودًا لدافع أسمى **:مساعدة الأشخاص اللاجئين مثلي، والذين قد يأتيهم مثل ما أتاني، أن يجدوا طريقهم في هذا العالم المليء بالتحديات.**

هذا الحلم لم يولد بين عشية وضحاها. لقد نما معي تدريجيًا، بدأ كشرارة خافتة في أعماق روحي، ثم تحول إلى شعلة قوية لا تنطفئ. أتذكر جيدًا تلك اللحظات التي ترسخت فيها هذه الرؤية. عندما كنت أرى أطفالًا جددًا يصلون إلى المخيم، عيونهم تحمل ذات التيه الذي عرفته، وأشعر بذات الضياع الذي غمرني في يوم من الأيام. كانوا يرتدون ملابس بسيطة،

ويحملون حقائب قليلة، ويحدقون في الكرفانات البيضاء بنفس النظرة الحائرة التي كانت على وجهي. في تلك اللحظات، كنت أرى نفسي فيهم، أرى طفلاً قادمًا من قرية هادئة، يرمى به القدر في عالم لا يعرفه. كنت أُدرك أن مهمتي لم تعد مقتصرة على بناء مستقبلي الخاص، بل امتدت لتشمل مد يد العون لهؤلاء الأطفال، لهؤلاء الشباب، ليجدوا طريقهم نحو الأمل.

كانت أحلامي في مساعدة اللاجئين تتخذ أشكالًا متعددة. في المقام الأول، كنت أؤمن بقوة **التعليم كأداة للتحرر** .كنت أحلم بتأسيس مركز تعليمي متكامل داخل المخيم، ليس مجرد فصول دراسية روتينية، بل مساحة للإبداع والابتكار. مكان يتعلم فيه الأطفال ليس فقط المناهج الدراسية، بل أيضًا مهارات الحياة، التفكير النقدي، حل المشكلات. كنت أتصور فصولًا دراسية مليئة بالأنشطة التفاعلية، ورش عمل في البرمجة والروبوتات،

دروس في الفنون والموسيقى، كل ذلك بهدف إعداد جيل جديد من اللاجئين، جيل لا يرى في اللجوء نهاية، بل بداية لفرصة جديدة. كنت أرغب في أن أوفر لهم ما لم يتوفر لي في بدايتي: مرشدين يؤمنون بهم، وبيئة تحفزهم على التفكير والتطور، وموارد تكنولوجية تساعدهم على مواكبة العالم.

ثانيًا، كان لدي حلم كبير في **تطوير التكنولوجيا لخدمة مجتمع اللاجئين** . بعد نجاح "العربابة الإلكترونية" البسيطة التي صممتها لمساعدة الوافدين، أدركت الإمكانات الهائلة للتكنولوجيا في تسهيل حياة الناس في المخيمات. كنت أحلم بتطوير تطبيقات للهواتف الذكية تُقدم معلومات أساسية للاجئين: عن الخدمات المتاحة، عن مواعيد توزيع المساعدات، عن فرص التعليم والتدريب. كنت أتصور نظامًا إلكترونيًا لتسهيل التواصل بين اللاجئين والمنظمات، ليكون صوتهم مسموعًا، ولتصلهم المساعدات والخدمات

بشكل أكثر فعالية. كانت الفكرة هي استخدام كل ما أتعلمه في مجال هندسة البرمجيات لتصميم حلول مبتكرة لمشاكل واقعية يواجهها الناس كل يوم في المخيم. أردت أن أُثبت أن التكنولوجيا ليست حكرًا على الدول الغنية، بل يمكن أن تكون أداة قوية في أيدي من يعيشون في أقسى الظروف.

ثالثًا، كنت أحلم بأن أكون **صوتًا للاجئين في المحافل الدولية** .بعد مشاركتي في المسابقة العالمية التي تحدثت عنها، أدركت أن قصتي، وقصص الآلاف مثلي، يمكن أن تُحدث فرقًا إذا وصلت إلى آذان صاغية. كنت أتصور نفسي أقف على منصات عالمية، أتحدث عن معاناتنا، عن آمالنا، عن قدراتنا. أردت أن أُغيّر الصورة النمطية للاجئ، من كونه مجرد رقم محتاج إلى إنسان قادر على العطاء، على الإبداع، على بناء المستقبل. كنت أرغب في أن أُطالب بحقوق اللاجئين في التعليم، في العمل، في الحياة الكريمة، وأن أُسهم في وضع سياسات وبرامج تدعمهم

بشكل فعال. كان هذا الحلم يتطلب مني أن أُتقن فن الخطابة، وأن أُثري معرفتي بالقوانين الدولية، وأن أُصبح قادراً على التواصل بفعالية مع مختلف الثقافات.

لم تكن هذه الأحلام مجرد خيالات وردية، بل كانت مدفوعة بإيمان عميق بأنني أستطيع أن أُحدث فرقًا. كانت تجربتي الشخصية هي أكبر محفز لي. كل لحظة يأس عشتها، كل تحدٍ تجاوزته، كل مساعدة تلقيتها، كل ذلك كان يرسخ في داخلي الرغبة في رد الجميل، ليس فقط للأردن الذي احتضنني، بل للإنسانية جمعاء. كنت أرى أن الألم الذي مررت به لم يكن عبثًا، بل كان درسًا، مدرسة صقلت شخصيتي، وأعدتني لأكون قائدًا، ملهمًا، ومُغيّرًا.

كنت أُدرك أن تحقيق هذه الأحلام لن يكون سهلاً. سأواجه عقبات كثيرة: نقص التمويل، البيروقراطية، عدم الفهم من البعض. لكنني تعلمت من

تجربتي أن الإرادة أقوى من أي عقبة. كنت أؤمن بأن الله يزرع فينا الأمنية لأنه يعلم أننا قادرون على تحقيقها. كنت أرى في كل شاب لاجئ يائس، في كل طفل يتيم، في كل عائلة تعاني، دافعًا إضافيًا لي لأواصل الكفاح، لأُثبت أنهم ليسوا وحدهم، وأن هناك أملًا دائمًا.

وبينما كنت أُكمل عامي الأخير في التوجيهي، كانت هذه الأحلام تملأ تفكيري، تُعطيني قوة إضافية للتركيز على دراستي. كنت أرى أن كل معلومة أتعلمها، كل درجة أحصل عليها، هي خطوة نحو تحقيق هذه الرؤية. لم أعد أدرس فقط لأنجح لي، بل لأنجح لهم، لأكون صوتًا لهم، لأُمهد لهم الطريق. كانت هذه الأحلام هي البوصلة التي قادتني، والنور الذي أضاء لي طريقي في أحلك الظروف.

كنت أُردد دائمًا في داخلي كلمات معلمي القديم: "أنت لم تخلق للحياة، بل الحياة خلقت لك." والآن، أضفت إليها جملة جديدة" **:والحياة خلقت لنا**

لنجعلها أفضل للآخرين، خاصة أولئك الذين فقدوا كل شيء ".هذا هو جوهر حلمي، هذا هو هدفي الأسمى.

الفصل الاخير

حلم اللاجئ

بعد كل تلك السنوات التي مرت كأيام، وكل الأيام التي بدت كسنوات، بعد أن رسمت خطوط حياتي بدمي ودموعي وإصراري، وبعد أن تصالحت روحي مع حقيقة كونها متعددة الأوطان والولاءات، أقف اليوم على عتبة فصل جديد، فصل لم يكن في الحسبان. لم تعد أحلامي مجرد همسات ليلية تتلاشى مع أول شعاع شمس، بل أصبحت حقائق ملموسة، **أهدافًا وضعت قدمي في طريقها، ووصلت إلى معظمها** .لم يكن الطريق مفروشًا بالورود، بل كان مليئًا بالأشواك، بالعثرات، باللحظات التي كادت فيها روحي أن تخور، لكن في كل مرة كنت أتذكر صوتًا قديمًا همس لي: "لا تيأس"، وصوتًا آخر قال: "أنت لم تخلق للحياة، بل الحياة خُلقت لك."

لقد مر عام التوجيهي كعاصفة هوجاء. كانت الليالي طوالًا، والكتب رفاقًا، والقلق سيد الموقف. كل خبر عن الوطن المتحرر كان يُشعل نارًا في قلبي، نار الشوق ونار المسؤولية. كان عليّ أن أُحقق النجاح هنا، لأُثبت أن

اللاجئ قادر على التفوق، وأن المخيم يمكن أن يُخرج قادة ومبتكرين.

درستُ بجد، وسهرتُ الليالي، وحرمتُ نفسي من كثير من متع الحياة البسيطة، حتى جاء يوم إعلان النتائج. كان قلبي يرقص في صدري كطائر مذبوح. وعندما ظهرت النتائج، وعندما رأيت اسمي بين أوائل المتفوقين، لم أصدق عينيّ. لم تكن مجرد علامات، بل كانت تتويجًا لسنوات من الصمود، رسالة بأن الجهد لا يضيع أبدًا. كانت تلك اللحظة هي المفتاح، مفتاح الأبواب التي طالما حلمت باجتيازها.

بعد تخرجي من الثانوية بتفوق، كانت وجهتي واضحة: **الجامعة**. لم يكن الأمر سهلاً كقبولي في دورة مهنية، فالجامعة حلم أكبر، وتكاليفها باهظة، والمنافسة شديدة. لكنني كنت قد تعلمت ألا أستسلم. قدمت طلبات القبول، وطلبات المنح الدراسية، أبحث في كل زاوية، أطرق كل باب. أتذكر الليالي التي كنت أمضيها وأنا أُعد أوراقي، أكتب رسائل الدافع، أُفكر في

كل كلمة، كأنني أُقدم روحي على طبق. وبعد انتظار طويل، جاءني الخبر السعيد: **تم قبولي بمنحة دراسية كاملة في تخصص هندسة البرمجيات** بإحدى الجامعات المرموقة في الأردن. في تلك اللحظة، شعرت وكأن الكون كله يبتسم لي، وكأن كل دمعة سقطت في المخيم قد تحولت إلى نجمة تضيء طريقي. احتضنت أمي وأبي، ودموع الفرح كانت تغمر وجوهنا جميعًا. كانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تحقيق أحلامي الكبرى في التكنولوجيا.

سنوات الدراسة الجامعية كانت تجربة فريدة. لم تكن مجرد مقاعد دراسية ومحاضرات، بل كانت رحلة اكتشاف. تعلمتُ المزيد عن البرمجة، عن الذكاء الاصطناعي، عن الشبكات، وعن كيفية بناء أنظمة معقدة. كنت أغوص في عالم الكود، أُترجم الأفكار إلى خوارزميات، وأرى كيف يمكن للغة الآلة أن تُحدث ثورة في حياة البشر. لم أكتفِ بالدراسة الأكاديمية، بل

كنت أبحث عن فرص للتطبيق العملي. شاركت في مسابقات برمجية، عملت في مشاريع جانبية، وكنت أُحاول دائمًا أن أربط ما أتعلمه باحتياجات مجتمعي، مجتمع اللاجئين. كنت أرى التكنولوجيا ليس فقط كمجال مهني، بل كأداة قوية لتقديم المساعدة، ولإحداث التغيير.

كان حلمي الأكبر هو **مساعدة اللاجئين مثلي، ومن هم يمرون بنفس الظروف** .وهذا الحلم بدأ يتحقق خطوة بخطوة. بعد نجاح "العربابة الإلكترونية" البسيطة في المخيم، قررت تطويرها. خلال دراستي الجامعية، عملت على مشروع تخرج جديد، **"روبوت الإرشاد الذكي ."**لم تعد مجرد عربابة بشاشة، بل أصبحت روبوتًا صغيرًا يتفاعل صوتيًا، مزودًا بخرائط تفصيلية للمخيم، وقادرًا على الإجابة عن أسئلة الوافدين الجدد حول الخدمات المتاحة، أماكن العيادات، المدارس، ومراكز توزيع المساعدات. كان هذا الروبوت يتجول في المخيم، ويُقدم المساعدة بلغات

متعددة، ويُجيب بصوت هادئ عن استفسارات الناس. عندما رأيت العجوز الذي لا يقرأ أو يكتب يستخدم الروبوت ليجد طريقه إلى العيادة، وعندما رأيت الأطفال يتجمعون حوله بفضول وسعادة، أدركت أن هذا ليس مجرد مشروع تخرُّج، بل هو تجسيد حقيقي لحلمي.

لم يقتصر عملي على المخيم. فبعد تخرجي من الجامعة بتقدير عالٍ، بدأت أُقدم مبادئ البرمجة والتكنولوجيا للأطفال اللاجئين في مخيمات أخرى، وفي مناطق نائية داخل الأردن. كنت أُسافر، أحمل معي حاسوبي المحمول وبعض الأجهزة البسيطة، وأُعلمهم كيف يمكنهم أن يخلقوا عوالمهم الخاصة من خلال الكود. كنت أرى في عيونهم البريئة ذات الشرارة التي كانت في عيني يومًا، ذات الرغبة في التعلم، ذات الأمل في مستقبل أفضل. كنت أروي لهم قصتي، عن الطفل الذي جاء إلى المخيم تائهًا، وعن كيف غيرت التكنولوجيا حياته. كانت كل ابتسامة أراها منهم، وكل سؤال

يطرحونه، تُجدد في داخلي الشغف، وتُثبت لي أن الأثر الحقيقي لا يقاس بالمال أو الشهرة، بل بالقلوب التي تفتحها للمعرفة والأمل.

لقد حققت معظم أهدافي التي وضعت قدمي في طريقي إليها. أصبحت مهندس برمجيات، أعمل في شركة مرموقة، وأساهم في مشاريع تكنولوجية كبرى. لكن الأهم من ذلك، أصبحت صوتًا للاجئين، وقصة تُروى في المحافل الدولية. لقد دُعيتُ للمشاركة في مؤتمرات عالمية، وقفت على منصات لم أكن أحلم بدخولها، وتحدثت أمام المئات، بل الآلاف من صناع القرار، ومن الشباب الملهمين. كنت أروي قصتي، لا لأستعطفهم، بل لألهمهم، لأُخبرهم أن اللاجئ ليس عبئًا، بل كنز من الطاقات والإبداع. كنت أُطالب بحقوق التعليم والعمل للاجئين، أُقدم حلولًا تكنولوجية لمشاكلهم، وأُثبت أن الإنسانية تتجاوز كل الحدود. في كل مرة كنت أُلقي فيها كلمة، كنت أشعر بأنني أحمل على كتفيّ أحلام الملايين من

اللاجئين حول العالم. كان صوتي هو صوتهم، وكلماتي هي تعبير عن آمالهم.

رسالتي إلى اللاجئين والعالم: لا تستسلموا!

إلى كل من يقرأ كلماتي، إلى كل روح تائهة في بحر اللجوء، إلى كل قلب مثقل بالهموم، إلى كل عين فقدت بريق الأمل :**لا تستسلموا!**

أعلم أن الألم حقيقي، وأن الغربة قاسية، وأن كلمة "لاجئ" قد تبدو كختم ثقيل يطاردكم أينما ذهبتم. أعلم أنكم قد تفقدون الأمل، أنكم قد تشعرون بأن العالم قد أدار لكم ظهره. قد تجدون أنفسكم في خيمة أو كرفان، بعيدًا عن أرضكم التي أحببتموها، تساوركم الشكوك: هل هذا هو قدري؟ هل هذه هي نهايتي؟

لكنني أقول لكم :**الألم ليس نهاية الطريق، بل هو بداية جديدة** .اليأس ليس قدرًا، بل هو شعور عابر يمكنكم تجاوزه. انظروا إليّ، أنا الطفل الذي جاء إلى المخيم لا يعرف شيئًا، الذي كادت أحلامه أن تموت، الذي فقد الإيمان بنفسه، والذي كاد يترك دراسته في أحلك الظروف. لكن شيئًا ما في داخلي رفض الاستسلام. شيء ما همس لي أن هناك قوة خفية، قوة الإيمان، قوة الإرادة، قوة الحب.

أنتم لستم أرقامًا في سجلات الإحصاء، أنتم لستم مجرد أعداد تُعدّ. أنتم قصص، أنتم أحلام، أنتم طاقات كامنة تنتظر أن تُفجّر .كل واحد منكم يحمل في داخله عالمًا كاملاً من القدرات. قد تُغلق الأبواب في وجوهكم، وقد تُحرمون من فرص كثيرة، لكن عقولكم وأرواحكم لا يمكن لأحد أن يُقيّدها. التعليم هو سلاحكم الأقوى، والمعرفة هي حريتكم الحقيقية. لا

تتوقفوا عن التعلم، عن القراءة، عن البحث، عن التساؤل. ازرعوا بذور الأمل في قلوب أطفالكم، علموهم أن الغد يحمل دائمًا فرصة جديدة.

اجعلوا من تحدياتكم فرصًا .نقص الموارد؟ علّموا أبناءكم الإبداع. ضيق المكان؟ علّموهم كيف يبنون عوالمهم الخاصة في أذهانهم. كلمة "لاجئ"؟ حوّلوها إلى وسام شرف، إلى رمز للصمود والتحدي، إلى قصة تُلهم الآخرين. ارفعوا رؤوسكم عالياً. أنتم لستم عاجزين، أنتم أقوياء.

تذكروا أن الله لا يزرع فيكم أمنية إلا وهو يعلم أنها ممكنة التحقيق .مهما بدت أحلامكم بعيدة، مهما كانت الصعوبات كبيرة، ثقوا بأن هناك طريقًا، وأن الإرادة تصنع المستحيل. ابحثوا عن النور في أحلك الظروف، وتشبثوا بالأمل كطوق نجاة.

إلى العالم أجمع، إلى كل من يرى اللاجئ مجرد صورة في التلفاز :انظروا بعمق إلى هذه الأرواح. انظروا إلى طاقاتهم، إلى أحلامهم، إلى قدراتهم

على البناء والعطاء. اللاجئ ليس عبئًا، بل هو شريك في بناء المستقبل، هو إنسان يحمل قصصًا من الصمود تستحق أن تُروى، وتجارب من العطاء تستحق أن تُقدر. امنحوا اللاجئين الفرص، امنحوهم التعليم، امنحوهم الكرامة، وسترون كيف سيُزهرون، وكيف سيغيرون وجه العالم نحو الأفضل. هم ليسوا فقط ضحايا حرب، بل هم بناة سلام.

هنا وُلِدَ كل شيء ... وهنا تتجدد القصة

لقد تحررت سوريا، وحققت معظم أحلامي التي رسمتها لنفسي. أصبحت مهندسًا، ومبتكرًا، وصوتًا للاجئين. ولكن، هذه ليست النهاية. هذه ليست الخاتمة بالمعنى الحرفي. فالحياة ليست نقطة وصول، بل هي رحلة مستمرة، رحلة مليئة بالأحلام الجديدة، بالتحديات الجديدة، بالفرص الجديدة.

اليوم، أقول لنفسي ولكم :**استمروا في الحلم، استمروا في العمل، استمروا في العطاء** .الأثر الحقيقي للإنسان لا يكمن في عدد السنوات التي عاشها، بل في عدد الأرواح التي لمسها، وفي عدد الأحلام التي أُشعلها.

لقد حملت الأردن في قلبي، كأم ثانية لا تُنسى. وسأعود يومًا إلى سوريا، لأزرع فيها كل ما تعلمته من خير وأمل. سأكون الجسر الذي يربط بين الأمس واليوم، بين الوطن والمخيم، بين الألم والأمل.

لا أطلب منكم شيئًا... فقط إن مرّ اسمي في يومٍ ما، محمد العلي، اللاجئ الذي حلُم ونهض، فادعوا لي. أحب أن أكون محبوبًا، حتى ممن لم يرَني. أحب أن أترك في قلوب الناس أثرًا طيبًا، كما تركوا في قلبي الأمل والصدق.

استودعكم الله، الذي لا تضيع ودائعه .وإلى اللقاء... في حلمٍ آخر، وقصةٍ جديدة .فالحياة لا تتوقف... وطريق الأمل لا ينتهي أبدًا.

محمد العلي – اللاجئ الذي حلُم